# ثالوث الشر

## النازية ـ الصهيونية ـ معاداة السامية

المحرر: عبد القادر ياسين



إصدارات سطور

تقديم: د عبد الوهاب المسيري

تصميم الغلاف: جوجي

النازية .. الصهيونية

.. معاداة السامية

# ثالوث الشر

النازية .. الصهيونية .. معاداة السامية

# ثالوث الشر

تقديم : د. عبدالوهاب المسيرى

تحرير : عبدالقادر ياسين

المشاركون

- أحمد زكريا محمد فرج
- زينب حسن
- محمود عبده
- أحمد كمال صلاح
- أحمد عاطف

طبعة سطور الأولى ٢٠٠٥

## إصدارات سطور صدر فى هذه السلسلة:

١ ـ محمد (ص)
٢ ـ صدام الحضارات
٣ ـ عصر الجينات
٤ ـ القدس
٥ ـ العولمة والعولمة المضادة
٦ ـ التاريخ السرى للموساد
٧ ـ من يخاف استنساخ الإنسان
٨ ـ حريم محمد على
٩ ـ عولمة الفقر
١٠ ـ صور حية من إيران
١١ ـ البحث عن العدل
١٢ ـ لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣ ـ الصهيونية تلتهم العرب
١٤ ـ معارك فى سبيل الإله
١٥ ـ التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦ ـ المكنز الكبير (معجم شامل للمترادفات والمتضادات)
١٧ ـ التسوية: أى أرض.. أى سلام
١٨ ـ الحق يخاطب القوة
١٩ ـ نساء فى مواجهة نساء
٢٠ ـ مؤامرة الغرب الكبرى
٢١ ـ روسيا.. إلى أين
٢٢- موسوعة الطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوجيا
٢٦- بوش ضد العراق ... لماذا؟
٢٧- أين الخطأ ؟
٢٨- اللولب المزدوج
٢٩- رجال بيض أغبياء
٣٠- سادة العالم الجدد
٣١- الخطيئة الأولى لإسرائيل
٣٢- اللعب مع الصغار
٣٣- الإبادة السياسية
٣٤ - حكومة العالم السرية
٣٥ - ما بعد الإمبراطورية
٣٦ - بوش في بابل
٣٧ المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى
٣٨ - تزييف الوعى
٣٩- القانون فى خدمة من ؟
٤٠ ـ كفى
٤١ - معنى هذا كله
٤٢- حياة بلا روابط
٤٣ - ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٤٤- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٥- جسدى سلاحاً

## أيضا مجلة سطور

**مجلة شهرية ثقافية عربية**

إصدارات سطور


**مدير النشر:**
أحمد مستجير

**هيئة التحرير:**
اعتدال عثمان

فاطمة نصر

ـ الكتاب: **ثالوث الشر**

ـ تقديم الدكتور عبدالوهاب المسيرى

ـ تحرير الأستاذ عبدالقادر ياسين

ـ ترجمة: د. فاطمة نصر

ـ غلاف وإخراج: جوبى

ـ المراجعة اللغوية : عمر الشناوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٥

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٨٧٧٩

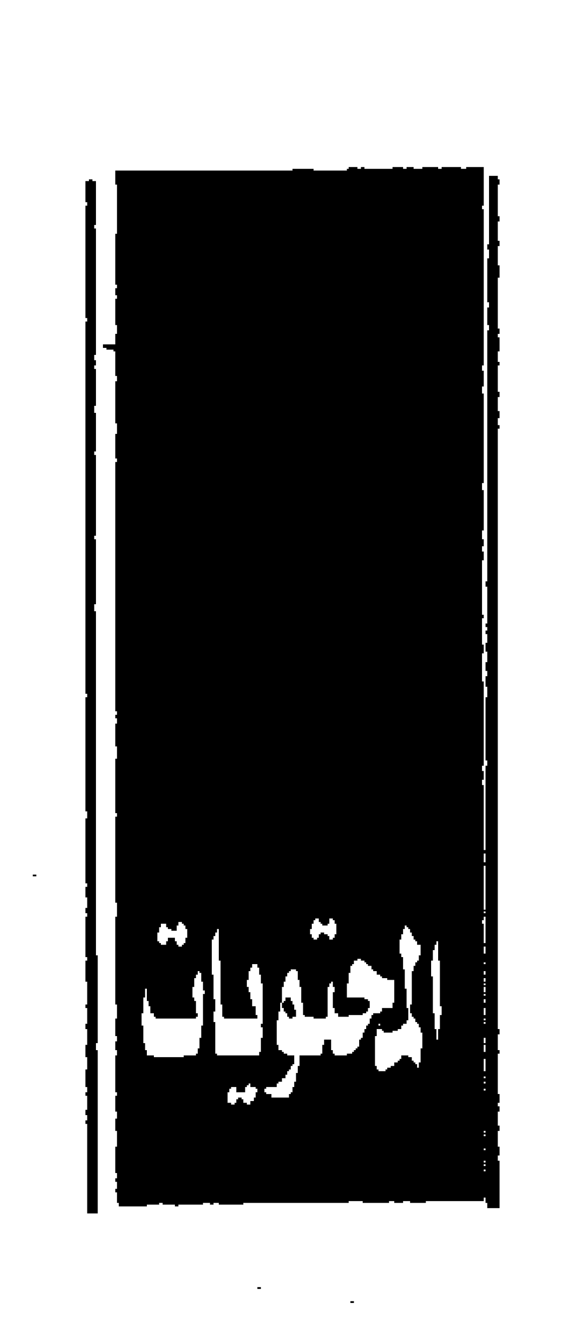


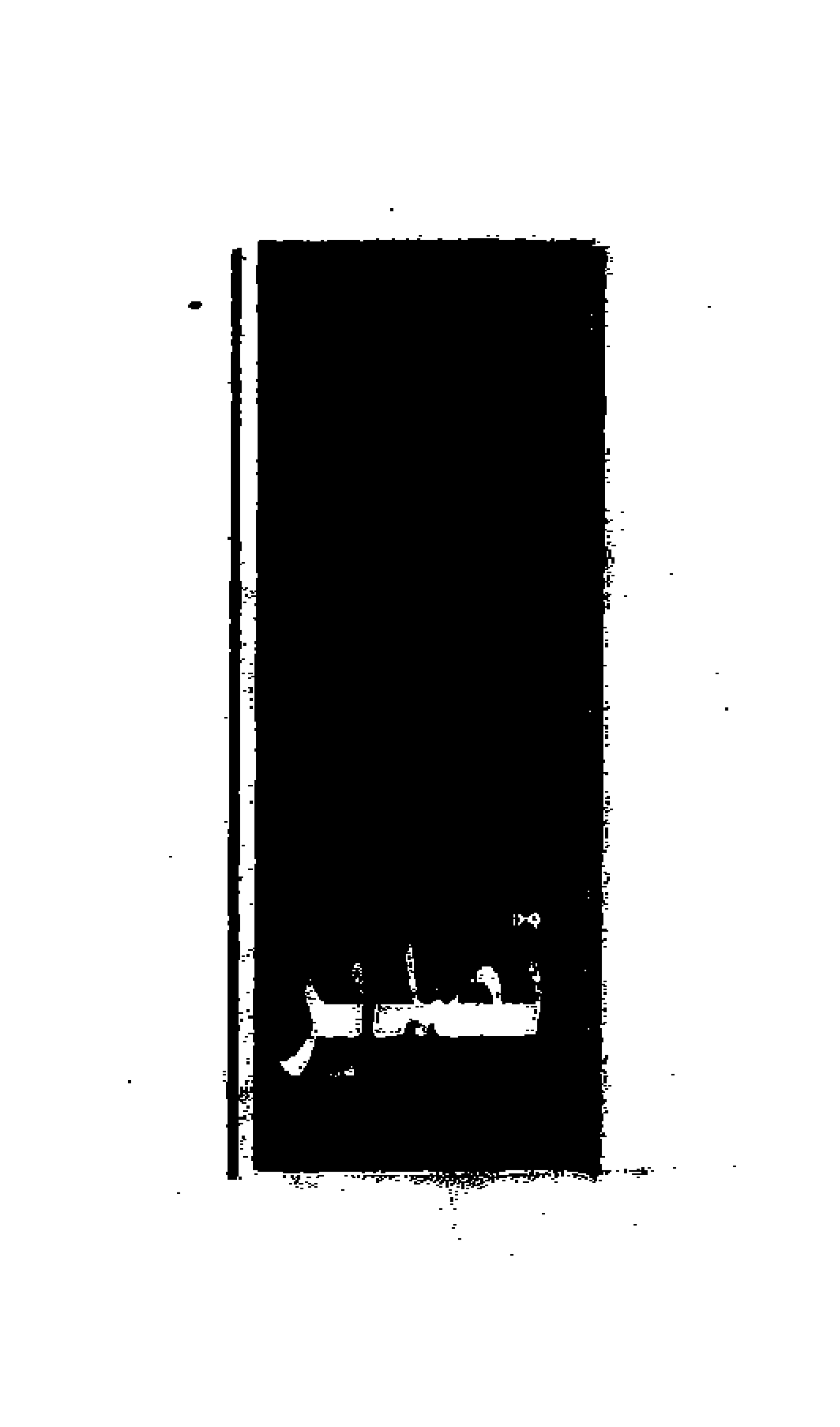


٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٠٢٠ ٥٢٤٠ /٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address: sutour@link.net


المحتويات


تصدير

ها قد وقع المحظور، وبتنا أمام ما يشى بأن الإمبريالية الأمريكية بصدد جمع الأناجيل من شتى أنحاء العالم، وتحريمها على كل بنى البشر، بعد أن أدانت الأناجيل اليهود بأعمال اقترفوها ضد المسيح (عليه السلام) وغيره. أما ما يدفعنا إلى ذاك الاعتقاد فلعله القانون الذى سنَّته الإدارة الأمريكية - بمجلسى برلمانها ورئيسها - فى أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤، حاملاً عنوان "قانون تعقُّب معاداة السامية".

لعل ما يدعو إلى الاستهجان أن لا أحد فى عالم اليوم يعترض على من يناقشون فى وجود الله. وإن كانت مناقشة عدد قتلى " الهولوكست " من اليهود محظورة تماماً، بل مؤثّمة. رغم أنهم خَفّضوا رقم القتلى فى معسكر «أُشفيتز» من أربعة ملايين ونصف، من اليهود وغيرهم، إلى مجرد مليون ونصف. وجاء هذا التخفيض سنة ١٩٩٤، دون أن يُقدِم أحد على توجيه الاتهام للقائمين على أمر أُشفيتز بأنهم تطاولوا على قدس الأقداس.

إن التشريع الأمريكى المومأ إليه انتهاك فظ للقانون الدولى، وازدراء معلن للأمم المتحدة، واستباحة تامة لكل دول العالم عموماً، والدول العربية والإسلامية على وجه الخصوص. بل إن ذاك التشريع استباح،

أيضاً، مواطني أى دولة يتجرأون على انتقاد الصهيونية، أو إدانة الانتهاكات الإسرائيلية الفظة، والجرائم البشعة التى استمرأت ارتكابها ضد الإنسانية، متجسدة فى الشعب العربى الفلسطيني، اليوم، ومن قبل بكل شعوب " دول الطوق" السابقة، إذ أباحت القوات الإسرائيلية لنفسها قتل آلاف الأسرى العرب، سوريين، وأردنيين، ولبنانيين، ومصريين، وعراقيين، وفلسطينيين.

لذا لم يكن غريباً أن يحفزنا التشريع المشار إليه على التصدى له، فكرياً فحركياً. ففى البدء كانت الكلمة.

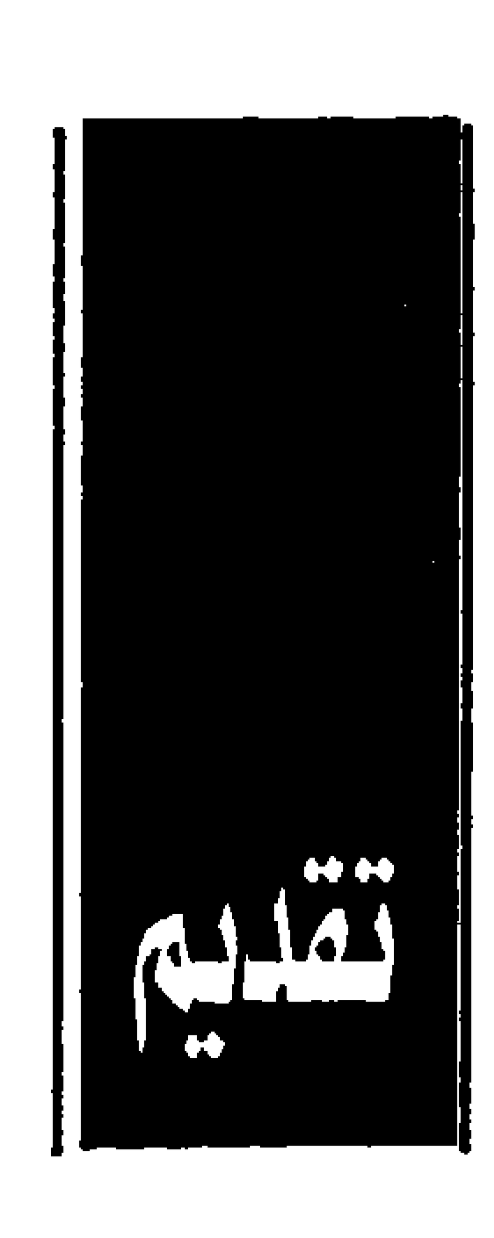
على أنه ما كان لمهمتنا الفكرية هذه أن تنجح، دون أن نغوص عميقاً فى جملة من الموضوعات، بدءاً من اليهود فى التاريخ، وفى السامية

ومعاداتها، وفى حيثيات ظهور الصهيونية، وفى الروابط بين هذه الصهيونية، والحركة النازية فى ألمانيا، رغم كل ما بدا من تعارض ظاهرى بينهما دون أن نهمل الضجة التى تثار، من وقت لآخر، حول الهولوكست، تلك المحارق التى نظمها النازى لليهود فى أقطارٍ أوروبية شتى، خلال سنى الحرب العالمية الثانية الست ( ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ).

آملين ألا تخلد الأمة وقواها الحيَّةُ للصمت والنوم، فهذا الكتاب ليس إلا خطوةً، ضمن خطى البداية الضرورية، فى سبيل إشهار إفلاس القانون المشار إليه. " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " صدق الله العظيم.

القاهرة فى ٢٠٠٥/٢/٢٨

المحرر


تقديم

فى أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤ صدر قانون أمريكى له العجب، لما تضمنه من جرأة على الحق، والقانون الدولى، حمل اسم "قانون لتعقب معاداة السامية".

على أن هذا القانون لم يقابل بما يستحقه من ردود فعل عربية وإسلامية، خاصة من القوى السياسية والأنظمة الحاكمة، التى لاذت بالصمت تجاه هذا القانون غير المسبوق فى خطورته على الأمن والسلام العالميين.

فيما تصدت بعض المؤسسات الأكاديمية العربية والإسلامية لهذا القانون، نذكر منها مركز الدراسات السياسية بجامعة القاهرة، والجمعية المصرية للقانون الدولى، والمنظمة العربية لمناهضة التميز، واللجنة العربية للتحرير والعودة فى مصر.

فى سياق مواجهة القانون المذكور، يجىء هذا الكتاب، الذى أنجزه ستة من النشطاء، الذين يجمعون بين العمل فى البحث الأكاديمى والاشتغال فى السياسة. وتوزعوا، جغرافياً، بين مصر وفلسطين.

يتسم الخطاب الصهيونى والأمريكى الإمبريالى بأنه ينزع الظواهر من سياقها السياسى والاجتماعى والتاريخى، فهو يتحدث عن "الإرهاب"، و"الشرق الأوسط الكبير"، و"معاداة السامية"، دون أن يربط الظاهرة بأسبابها، أو سياقها، ثم يفرض عليها المعنى الذى يريده. وهذا الكتاب يفعل

العكس، تماماً، فهو يضع هذا القانون الأمريكى فى سياق الاستراتيجية العامة للهيمنة. فيقول الأستاذ عبد القادر ياسين فى دراسته : "إن هذا القانون لم ينزل بمظلة من السماء، كما لم ينبت شيطانياً من الأرض ... ولم يصدر إرضاءً للصوت اليهودى فى الولايات المتحدة، أو تعبيراً عن خضوع الولايات المتحدة للصهيونية، وكيانها. فهو يعكس أحد أهم ثوابت الاستراتيجية الأمريكية فى التحيُّز للصهيونية وكيانها، بما يضمن أمن الأخير وتفوقه العسكرى على الدول العربية مجتمعة. وليس هذا كله إلا أحد تجليات ارتقاء العلاقة الأمريكية- الإسرائيلية من التحالف الاستراتيجى إلى الاندماج الاستراتيجى، فإسرائيل لم تعد مخلب قط للإمبريالية الأمريكية، أو شريكاً صغيراً لها، فحسب بل غدت إحدى الولايات الأمريكية." ثم يضيف الأستاذ عبد القادر ياسين، فى الفصل نفسه، "إن صدور القانون هو تعبير

عن تحرك الإمبريالية الأمريكية السريع، من أجل تكريس احتكارها موقع رأس النظام العالمي الجديد، بعد انهيار النظام العالمي ... وحتى تعيق تلك الإمبريالية مزاحميها من الدول الكبرى (فرنسا، وألمانيا، والصين) عن التطور، ومنافسة الإمبريالية الأمريكية على الموقع الأول في هذا الميدان. ولعل هذا يفسر العدوان الأمريكي السافر على أفغانستان (٢٠٠١)، والعراق (٢٠٠٣)، بهدف استكمال الاحتكار الأمريكي لنفط العالم، والتحكم، من ثم، باقتصاديات الدول المنافسة إياها".

ولا يكتفى الكتاب الذى بين أيدينا بوضع القانون فى سياقه الاستراتيجى العام، بل يحاول أن يعطى القارئ بانوراما تحليلية، فهى بانوراما فى اتساعها، وتحليلية فى أن كل واحد من المساهمين فى الكتاب قام بتحليل إحدى جوانب هذه البانوراما، بشكل مفصّل، ونقدى، فى ذات الوقت، يبين مدى إدراكهم للمصطلحات والمفاهيم الكامنة وراءها.

ففى الأول يتناول أحمد عاطف "اليهود فى التاريخ"، ويشير إلى أنه يستحيل التعامل مع "تاريخ اليهود"، أو " التاريخ اليهودى"، إذ ارتبط تاريخ كل جماعة يهودية بتاريخ المجتمع الذى عاشوا بين ظهرانيه.

أما أحمد زكريا محمد فرج فقد ألقى الضوء على ما يسمى مفهوم "السامية"، ذلك الموغل فى القدم، والذى يزعم بعض المتحدثين باسم الجماعات اليهودية أنهم انحدروا منه. ومن ثم يصممون الوقوف فى وجههم بمعاداة السامية.

وفى الفصل الثالث، المعنون "حيثيات ظهور الصهيونية"، تتناول زينب حسن الجذور التاريخية للصهيونية، فتبين أنها ولدت من رحم الرأسمالية والإمبريالية العالمية، فى أواخر القرن التاسع عشر، والكاتبة بذلك تبين أن الصهيونية ظاهرة تاريخية، نشأت تحت شروط تاريخية معينة، وأنها ليست رغبة ميتافيزيقية صاحبت اليهود منذ "شتاتهم"، فى القرن الأول الميلادى، بعد هدم الهيكل، كما تزعم المصادر الصهيونية.

على أن المفارقة الظاهرة تجلت فى العلاقة بين الصهيونية والنازية، رغم ما بينهما من تعارض، فإنهما التقيا فى غير موضع، لعل أولها انتسابهما إلى الظاهرة الإمبريالية الأم. وثانيهما تقديس كل منهما للجنس التى تدعى كل منهما الانتساب إليه، "شعب الله المختار" بالنسبة للصهيونية، و"الجنس الآرى" للنازية، عدا اغترافهما من الفيلسوف العنصرى الألمانى الشهير، فردريك نيتشه الأمر الذى عالجه محمود عبده فى الفصل الرابع.

عن الضجة التى ثارت حول "الهولوكست" تلك المحرقة التى أقامتها النازية لليهود فى أوربا، خلال سنى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥)، كتب أحمد كمال صلاح، فى جولة أفق بين مختلف وجهات النظر فى الهولوكست.

بعد هذا الغوص العميق فى جذور المسألة، تصدى عبد القادر ياسين للقانون نفسه، عبر قراءة متأنية له، كما ختم الكتاب بملحق لنص القانون، حتى يتسنى للقارئ أن يحكم بنفسه على مدى تهافت هذا القانون، وبالتالى يصل إلى الهدف الحقيقى من وراء إصداره، أى الهيمنة الأمريكية على العالم، خاصة العالم العربى والإسلامى.

وبعد، فإننا أمام لبنة فى بناء نتمنى أن ينتصب فى وجه الغطرسة الأمريكية عموماً، وفى وجه هذا القانون خصوصاً. والله أعلم.

القاهرة فى ٢٨ /٣/٢٠٠٥

عبد الوهاب المسيرى


الفصل
الأول

# اليهود فى التاريخ

# 1

أحمد عاطف

ليس صحيحاً أن ثمة تاريخاً يهودياً مستقلاً، فمثل هذا الزعم يفصل تاريخ اليهودية عن تاريخ الأمم والشعوب، وبذلك فهو يختزل واقع تلك الجماعات ويُبَسِّطه، ويجعله تافهاً[1].

فأعضاء الجماعات اليهودية لم يكونوا صانعي قرارات، في عصور التاريخ المختلفة، والأحداث الكبرى التي وقعت لهم، تكمن جذورها، وأسبابها في مجتمع الأغلبية، وافتراض استقلالية التاريخ اليهودي، يجعل الأحداث الكبرى، التي قررت مصير تلك الجماعات (كظهور الدولة الآشورية، أو ظهور الإمبريالية الغربية) تقع في نطاق هذا التاريخ، وتصبح هذه الأحداث، رغم أهميتها،أحداثاً هامشية[٢].

في رحلة التنقيب عن تاريخ الجماعات اليهودية، يضطر الباحثون إلى اللجوء للمصدر التوراتي، والكتابات الإسرائيلية المقدسة منها، وغير المقدسة، ولا يمكننا هنا إغفال الدين، باعتباره أحد الأبعاد المهمة عند دراسة التجارب التاريخية، إلا أن هذا الاضطرار لابد من أن يكون

مصحوباً بالحذر والاحتراس الشديدين، عند التعامل مع تلك المصادر، لأسباب عديدة أهمها: -

أن التاريخ التوراتى المقدس الوارد فى " العهد القديم" يعتمد على رواياتٍ وحكايات، ظلت تتداول، شفوياً، لعدة قرون، قبل صياغتها - فبركتها - فى القرن السادس ق.م.، بعد موت موسى، عليه السلام، بثمانية قرون، إبان التهجير البابلى.

كما أن كثيراً من الأحداث الواردة فى " العهد القديم "، التى تدعى لنفسها صفة التاريخية، تعطى المدونات المصرية، والآشورية، والبابلية، صورةً مختلفةً عنها، تماماً، فحياة الجماعات اليهودية فى شبه الجزيرة العربية، وأرض الرافدين، ليست معروفة، معرفةً كاملةً، لقلة

الآثار التى تركوها، أو ندرتها، ولا تعدو تلك الجماعات سوى كونها تضم، بدواً متنقلين، أقل حضارةً، وأكثر بداوةً، من الأمم والحضارات العديدة التى عاصروها[٣].

مع بداية النشاط الحفرى والكشوف الأثرية الحديثة، منذ بداية القرن العشرين ـ وما آلت إليه نتائجها، من تناقض صارخ مع كثير مما جاء فى " العهد القديم "ـ اتسعت دائرة البحث، وأضاءت نقاطاً هامةً، ظلت لقرون عديدةً مبهمة.

لسنا هنا بصدد التشكيك فى المصدر التوراتى، لكننا آثرنا لفت الانتباه، إلى التعامل مع هذا المصدر، من خلال الرؤية المومأ إليها، حتى لا نقع أسرى أحداث، قد تكون منافيةً للحقيقة والواقع التاريخيين.

بنظرة أكثر عمقاً إلى تاريخ الجماعات اليهودية، نجد خلطاً بين ثلاثة مصطلحات، يستخدم أىٌ منها مرادفاً للآخر، وهى : العبرانيون، والإسرائيليون، واليهود، بينما هى فى الواقع ليست كذلك[٤].

فالعبرانيون أو العبريون (حسب الرواية التوراتية) هم الذين عبروا نهر الفرات/ الأردن ـ لا ندرى ـ، فى رحلتهم مع إبراهيم عليه السلام، من أور ـ الكلدانية ـ إلى أرض كنعان، وكذلك نسبةً إلى عابر بن سام بن نوح، وكلا التفسيرين يشوبهما الخلل، " فالعبرانيون " أطلقت على جميع الأقوام التى عبرت مع إبراهيم، ولم تقتصر تلك الصفة على مجموعة بعينها، وكذلك النسب إلى " عابر " غير معقول، فالفترة الزمنية بين نوح وإبراهيم أطول من ذلك بكثير.

إلى ذلك تحدثنا النصوص البابلية عن " جماعات خبيرو " كما

تتحدث النصوص المصرية عن جماعات " عابيرو " للدلالة على فئة من العمال الذين كانوا يكلفون بالأعمال الشاقة، ثم يتم التخلص منهم بمجرد انتهاء العمل. ولاشك أن هذه أسماء لقبائل قديمة، اضطرت إلى هجرة موطنها الأصلى، للبحث عن موطن جديد.

أما الإسرائيليون فهم أبناء يعقوب، الذى ستأتى تسميته " إسرائيل "، وسموا بذلك نسبةً إلى الاسم الجديد.

أخيراً فينسبون إلى يهوذا - الابن الرابع ليعقوب -، أو نسبة إلى مملكة - يهوذا - الإقليم الجنوبى من "مملكة إسرائيل"(٥).

عند شروعنا فى الحديث عن اليهود فى التاريخ، أو تاريخ العبرانيين - الجماعات اليهودية - أو جماعة يسرائيل*، نرى أن نبدأ بتقسيم بسيط لتواريخ تلك الجماعات، ويضم التقسيم** مرحلتين:

الأولى: المرحلة السديمية: وتبدأ من الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين، وتنقسم إلى :

أ- فترة الآباء (٢١٠٠-١٢٠٠ ق.م.)، وتبدأ من هجرة إبراهيم إلى فلسطين، حتى هجرة يعقوب وأولاده إلى مصر.

ب- فترة القضاة، وتبدأ من ١٢٧٠ ق.م.، حتى دخول الجماعات اليهودية أرض كنعان، على يد يوشع بن نون.

الثانية: تضم تاريخ الجماعات اليهودية فى الإمبراطوريات القديمة

---

* جماعات يسرائيل :التوصيف أو المصطلح الدينى الموازى للعبرانيين،أوالجماعات اليهودية.

** التقسيم لـ د/ المسيرى.

(آشور، بابل، الفرس، اليونان).

إن استخدامنا لمثل هذا التقسيم يعضد فكرة نفى وجود " تاريخ يهودى " مستقل، بالفعل.

أما " التوراة " فتعرض تاريخ الجماعات اليهودية - كسلسلة من العصور المحددة، تحديداً دقيقاً، فى عصور متعاقبة (الآباء - السخرة فى مصر - غزو كنعان) ، لكن هذه الصورة لا تعدو أن تكون صورة وهمية، إلى حد كبير، ويتأكد معها أن هذا التقسيم مصطنع(٦).

لعل أوثق الأقوال عن أصل العبرانيين، أنهم كانوا قبيلة بدوية صغيرة، خرجت من شبه الجزيرة العربية - مهد الساميين جميعاً - وقد انفصلت منها موجات متتابعة فى أحقاب متتالية، بحثاً عن الرزق، والتماساً لأمكنةٍ أخصب، وعيشٍ أرغد، ومن هذه الأجناس الفينيقيون، والآشوريون، والكلدانيون، والأثيوبيون، وغيرهم، فهذا الجزءالعبرى منهم، وقد استقر فى منطقة الهلال الخصيب* وفلسطين. لايمكن تحديد الزمن الذى نزحوا فيه من شبه الجزيرة، لكنهم أقاموا هناك بين ساميين، نزحوا إلى هذه الأرض من قبلهم، ومن بين تلك الجماعات، تلك القبيلة، التى ينحدر منها إبراهيم، ونسله(٧).

على ذلك لم تكن "أُور" موطنهم الأصلى، بل نزحوا إليها من جزيرة

* الهلال الخصيب : هى المنطقة الممتدة شمالى جزيرة العرب، على شكل هلال، يؤلف العراق (وادى الرافدين) نصف قوسه الشرقى، وتؤلف فلسطين، والأردن، وسوريا، ولبنان نصف قوسه الغربى، وقاعدة قوس الهلال، على الحدود الشمالية لجزيرة العرب، (موسوعة المسيرى، صـ١١٠).

العرب، أما الكتب التى تبدأ حديثها برحلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ من "أور" فتفعل ذلك مجاراةً لماجاء فى "العهد القديم"، ولأن حياة اليهود، قبل ذلك، ليست معروفة، بسبب قلة الآثار التى تركوها، وتخلفهم الحضارى آنذاك، وسط تشكيلات حضارية مختلفة، كانت موجودة فى الشرق الأدنى القديم، لعل أبرزها الحضارة المصرية، وحضارة أرض الرافدين(٨).

دخل العبرانيون أرض كنعان نتيجة ثلاث هجراتٍ غير مُحَدَدَّة، الأولى كانت من بلاد الرافدين، فى القرن الثامن عشر ق.م.، والثانية فى القرن الرابع عشر ق.م.، وكانت إلى مصر إبان حكم الهكسوس، أما الثالثة فهى التى أتت من مصر، بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ ومن بعده يوشع بن نون، فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر ق.م.، فضلاً عن هجرتهم الأولى من شبه الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين(٩).

لقد كان على العبرانيين حتى يستقروا فى أرض كنعان أن يحاربوا أهلها (الكنعانيين) ، أول من سكن هذه الأرض على أرجح الآراء. وفى بعض الدراسات السامية القديمة أنهم، أيضاً، قبيلة سامية من الجزيرة العربية، استقرت بفلسطين، وأقامت بها حضارة راقية، لعبت دوراً مهماً فى تاريخ سوريا وأرض كنعان. غير أن حروبهم لم تسفر إلا عن استيلاء العبرانيين على التلال والأراضى الفقيرة الداخلية، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين الأصليين، وقد أخذ الوجود العبرانى فى كنعان شكل جيوب صغيرة، أقل حضارةً من الشعوب الأخرى(١٠).

يرتبط تاريخ كنعان بالتاريخ المصرى، إلى حدٍ كبير، فقد ضمتها مصر إليها، خلال حكم الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ ـ ١١٧٦ ق.م.)،

فعمها الرخاء، ثم قام الهكسوس باحتلال كنعان ومصر، مدة ١٨٠ عاماً، إلى أن طردهم المصريون، وضموا أرض كنعان، مرةً أخرى، إلى مصر، ومع قيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ١٢٠٠ ق.م.) عادت كنعان إلى الهيمنة المصرية من جديد(١١).

فى منتصف القرن السابع عشر ق.م. هاجر يعقوب وأولاده إلى مصر، بسبب القحط الذى اجتاح أرض كنعان، واستقروا فيها، فى أرض "جاشان"، وكان يوسف ـ عليه السلام ـ آنذاك، وزيراً فى البلاط المصرى، وظلوا فى مصر، حوالى ٣٥٠ عاماً، حتى استطاع موسى أن يفلت بهم إلى سيناء، حوالى ١٣٠٠ق.م.، ومن ثم إلى كنعان، هرباً من اضطهاد فرعون، الذى استعبدهم، انتقاماً لتحالفهم مع الهكسوس الغزاة، إلا أنهم عصوا أوامر الله، وذلك لخوفهم من "العماليق"، أو " الفلستيين"، فضُرب عليهم التيه فى صحراء سيناء، ٤٠ عاماً، عقاباً لهم(١٢).

يختلف المؤرخون حول تاريخ هجرة العبرانيين من مصر، فيرى مانيتو أنها كانت فى القرن السادس عشر ق.م.، مع الهكسوس، وثمة رأى ثانٍ يقول إنها كانت فى زمن تحتمس الثالث، وثالث يقول إنها تمت أثناء حكم رمسيس الثانى (١٢٧٥ ـ ١٢٥٠ ق.م.)، وآراء أخرى ترى أنها كانت فى عصر مرنبتاح، عام ١٢٣٠ ق.م.، ومعظم جوانب تلك الهجرة لاتزال مظلمة(١٣).

لم تكن هجرة العبرانيين من مصر حدثاً تاريخياً مهماً، بل كانت مجرد حركة طرد من مصر، فى إطار حركات الطرد والهجرة، التى شهدتها تلك الحقبة، فقد شهدت منطقة البحر الأبيض المتوسط، من ١٤٠٠ ـ ١١٠٠ ق.م.، حركة هجرةٍ هائلة من أواسط آسيا، مثل " شعوب

البحر "، ومنهم " الفلستيون "، الذين انتشروا على السواحل الكنعانية، عام ١٢٠٠ ق.م.، نتيجة اضطرابات في موطنهم الأصلي، ناجمةً عن تدفق الإغريق إليه، أو ربما نتيجة كوارث طبيعية، ويرى البعض " كريت " أصلاً لهم(١٤).

أما الوثائق المصرية الكثيرة المعروفة لنا، فلا تتطرق، بالمرة، إلى مكوث " شعب إسرائيل " في مصر، أو خروجهم منها، في وثائق ومستندات كثيرة تطرقوا إلى عادات وتقاليد الرعاة الرحل (الذين يُسَمون شاسو) في الدخول إلى مصر إبان القحط، حيث استوطنوا أطراف الدلتا، ولا تعدو " هجرة العبرانيين من مصر " حدثاً تاريخياً، فقد شابهه الكثير، في أحيان متقاربة، خلال آلاف السنين(١٥).

لم يتمكن العبرانيون من مغادرة الحدود المصرية، إلا بعد انتهاء فترة التيه في صحراء سيناء، ثم جاء خروجهم على يد يوشع بن نون(١٦).

كانت هذه مرحلة من مراحل تاريخ الجماعات اليهودية، اتسمت بالغموض، وغصت بالمبالغات والأساطير، ثم بدأت مرحلة اتسمت ببعض الوضوح التاريخي، وإن لم تخل، أيضاً، من المبالغة والتهويل. حيث تولى يوشع بن نون قيادة الجماعات اليهودية، ليبدأ التسلل العبراني إلى كنعان، والذى يصوره "العهد القديم" على أنه "غزو" لأرض كنعان، كما تصف الصورة التوراتية يوشع بالقسوة، وحب الإبادة وسفك الدماء، حتى تصل المبالغة ذروتها، في تخليص الله، وقتاله بجانب "شعبه" والاستيلاء على أريحا، وإحراقها، وإبادة أهلها، و"عاى" و"حاصور" كذلك، وركوع باقى المدن الكنعانية أمام يوشع، كما تضخم الصورة من قوة وحصانة المدن الكنعانية، التي تم احتلالها.

اعتُبِرَت هذه العملية تسللاً، إذ لم يكن فى مقدور الجماعات اليهودية، غزو هذه الأرض، والاستيلاء عليها، ولم يكن أمامهم سوى التسلل التدريجى إليها، وقد كانت عملية طويلة امتدت فيما بين ١٢٥٠ - ١٢٠٠ ق.م.، لم يكن لهذا التسلل أن ينجح لولا الغياب المؤقت للإمبراطوريات العظمى القديمة، ولم يحرز العبرانيون أى نصرٍ عسكريٍ ملحوظ، وأسفر التسلل عن استيلاء الجماعات اليهودية على بعض المناطق الجبلية، فى شكل جيوب غير مترابطة، عن طريق التجسس، والتخريب، وتوظيف عنصر المفاجأة، والغزو، أحياناً. أما السهول الغنية، فقد ظلت الهيمنة عليها للكنعانيين، أصحاب الأرض(١٧).

كان "الفلستيون" حديثى عهد فى تلك المنطقة، وقد استقروا فى فلسطين، منذ الألف الثانى ق.م.، وسرعان ما امتزجوا بالكنعانيين، وتحالفوا مع ملوكهم، لمقاومة هذا التسلل، فحاقت بالعبرانيين هزائم متوالية منها هزيمتهم عام ١٠٥٠ ق.م.(١٨).

تخبرنا المصادر التاريخية المصرية أن "كنعان" كانت تابعةً للنفوذ المصرى، فى القرن الثالث عشر ق.م.، وكان لمصر بها حاميات عسكرية، وقد سارت الجيوش المصرية إلى كنعان، مرتين، الأولى بقيادة سيتى الأول، فى بداية القرن الثالث عشر ق.م.، والثانية بقيادة رمسيس الثانى، فى نهاية القرن نفسه. ولم يرد ذكر لممالك بنى إسرائيل، فى النصوص المصرية، إطلاقاً، عدا ماورد، فى لوحة "إسرائيل"، ومفادها أن بنى إسرائيل، خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر ق.م.، كانوا لايزالون يعيشون حياةً شبه بدوية فى كنعان، منهزمين أمام السلطة المصرية(١٩). ورغم ذلك لا تعترف " التوراة" بهذا الواقع الجيوسياسى بالمرة.

كما تؤكد المصادر نفسها أن ملوك مصر، فى منتصف القرن السادس عشر ق.م.، لم يكتفوا بطرد الهكسوس من مصر، بل لاحقوهم إلى كنعان، وهناك حطموا حصونهم، بما فى ذلك أسوار أريحا، التى ظلت مهجورةً لمدة أربعة قرون(٢٠).

تأتى بعد ذلك أعمال الحفر بأدلةٍ أثرية تفيد بأن مدن كنعان ظلت مهجورةً منذ تحطيمها على أيدى المصريين، وأن أريحا لم يكن بها أسوار، فى أيام يوشع - كما تصف التوراة - وأن هذه المدن، لم تتم إعادة بنائها، على الإطلاق، وتعتبر " كاثلين كينيون"، الباحثة الأثرية البريطانية، صاحبة هذا الرأى، بناءً على أعمال الحفر التى قامت بها، ١٩٥٢ - ١٩٥٨م(٢١).

لقد انتهت كينيون إلى نتيجةٍ، مؤداها استحالة الربط بين حادثة تدمير أريحا، ودخول الجماعات اليهودية إلى المدينة، فى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.(٢٢).

ظلت المدينة مهجورة حتى تعرضت للموجة الثانية من الدمار، عند بداية القرن الثانى عشر ق.م.، على يد "أقوام البحر"، التى قامت بغزو الساحل الكنعانى، وقضت على النفوذ المصرى - الثابت تاريخياً - فى كنعان. ولعل الفلستيين - وهم الفلسطينيون - أحد هذه الأقوام(٢٣).

ظلت الجماعات اليهودية، التى خرجت من سيناء، حوالى قرنٍ من الزمان، تقيم فى منطقة سعير الجبلية الوعرة، الواقعة جنوبى البحر الميت، أما دخولهم كنعان فكان على شكل تسلل، بالفعل، وعلى فترات متباعدة، وهذا ما أكدته المصادر التاريخية المعروفة، والأدلة الأثرية(٢٤).

أما عن حضارة المدن الكنعانية، فالمُكتَشَف الأثرى يناقض، بوضوح، الصورة التوراتية، فمدن كنعان لم تكن ضخمة، أو محصنة، كما لم تكن شامخة ـ كما ورد فى التوراة ـ وبطولة المحتلين، ومواجهة الأقلية للأكثرية (الجماعات اليهودية ويوشع بن نون ضد الكنعانيين) ، وتخليص الله، الذى قاتل إلى جانب شعبه، ماهى إلا بدعة لاهوتية، ولا وجود لأى أساس لها فى الواقع[٢٥].

يبدأ بعد ذلك عصر القضاة (١٢٥٠ ـ ١٠٢ ق.م.)، وبانتهائه ينتهى تاريخ العبرانيين، ويبدأ تاريخ الجماعات اليهودية، فى المراحل المختلفة للإمبراطوريات القديمة.

فبعد تسلل القبائل العبرانية لكنعان، حوالى ١٢٥٠ ق.م.، لم تكن هناك أى مظاهر لتجانس أو تماسك، تُمَيِّز العبرانيين عن باقى أهل كنعان[٢٦].

كانوا عبارة عن قبائل متفرقة، تعيش فى قرى بلا أسوار، ولا سلطة مركزية موحدة، ولا جيش منظم[٢٧].

لقد واجه العبرانيون محاولات الفلسطينيين إخضاع شعوب المناطق الجبلية، من الشمال للجنوب، بمحاذاة نهر الأردن، والبحر الميت، وكان لابد من الصدام بين ملوك الفلسطينيين والعبرانيين[٢٨].

كانت العلاقة الواحدة التى تربط القبائل العبرانية المتفرقة هى ما عرف بالقضاة، وهم أشخاصٌ لهم علاقةٌ بالسلطة الروحية، وطقوس الذبح، والعبادة، وكان آخرهم (صاموئيل)، الذى هرعت إليه القبائل، ليختار لهم ملكاً، يحكم فيهم، ويقودهم ضد الفلسطينيين، لكنه حذَّرهم

من بطش الملوك وفسادهم، على أنه أمام إصرارهم اختار لهم شاؤول (طالوت)، وأوصوه أن يحارب الفلسطينيين ولا يرحم منهم أحداً، وكان ظهور شاؤول مع القبائل العبرانية، حوالى منتصف القرن الحادى عشر ق.م.(٢٩).

وقف الجيش الفلسطينى بأسلحته وعجلاته الحربية، مقابل القبائل العبرانية، التى كادت الهزيمة تلحق بها، لولا أن (داود) استطاع قتل أحد زعماء الفلسطينيين (جالوت)، والتقى شاؤول، للمرة الأخيرة، بجيوش الفلسطينيين، فهرب من القبائل العبرانية من هرب، وسقط منهم الجرحى والقتلى كثيرون، وكان منهم شاؤول وأبناؤه الثلاثة.

هكذا وفى لحظة المواجهة الحاسمة، انهار أول تحالف للقبائل العبرانية، أمام زحف ملوك الفلسطينيين، الذين أرادوا توحيد أرض كنعان تحت سيطرتهم(٣٠).

ثم جاء حكم داود للقبائل العبرانية، وكان الفلسطينيون ذوى السيادة على البلاد، وكان داود وبما له من نزعةٍ دينيةٍ، قد جمع القبائل حوله(٣١).

إلى داود يرجع الفضل فى تأسيس "المملكة العبرانية" التى لم يعرف اسمها، قبل عام ١٠٢٠ق.م، تقريباً، ويقال إنها وصلت فى عهده إلى أقصى ما يمكن من الرقى، وقد امتدت ـ أو بالأحرى انحصرت ـ فيما بين دان شمالاً، إلى بئر سبع جنوباً، واتخذت من يبوس (أورشليم) فيما بعد، عاصمةً لها(٣٢).

كما أراد داود أن يبنى معبداً، إلا أن أعباءه الكثيرة لم تمكنه من ذلك(٣٣). ويرد البعض تمكن العبرانيين من تأسيس تلك المملكة، إلى

الفراغ السياسى، الذى ساد الشرق الأدنى القديم، آنذاك، ورغم ذلك فقد كانت القبائل العبرانية تسكن الهضاب الفلسطينية، وتعيش فى حالة بدوية، فى خيام، وليس لها مدن محصنة(٣٤).

لقد وُصِفَت هذه المملكة فى التوراة، كقمةِ الاستقلال السياسى، والعسكرى، والاقتصادى، لشعب إسرائيل، فى العهود السابقة، أما الاكتشافات الأثرية الحديثة، فقد أظهرت أن حركة البناء التى تحدثت عنها "التوراة"، فى هذه الفترة كانت قليلة بل شحيحة(٣٥).

ثم ورث سليمان داود، وما أسسه، لكنه لجأ إلى التجارة،التى أجهدت المملكة بنفقاتها الكثيرة(٣٦). ودفعت الأرستقراطيين العبرانيين، ورجال الدين، إلى استغلال العامة بالربا، والقرابين، وقد حال ذلك دون بناء كيانٍ مستقر، ذى تقاليد سياسيةٍ ثابتة، وعلى آخرعهد سليمان انقسمت المملكة العبرانية ـ التى لم تصل بالكاد إلا إلى الساحل ـ إلى مملكتين : الشمالية، وضمت قبائل "يسرائيل" و"إفرايم"، والمملكة الجنوبية "يهوذا". ويرجع هذا التقسيم إلى أسبابٍ مباشرة، منها السياسية المتمثلة فى رغبة القبائل العبرانية فى الانفصال عن سطوة الهيكل فى القدس، والاقتصادية كالضرائب الباهظة، التى فرضها سليمان، فضلاً عن الأسباب المباشرة، ومنها أن اتحاد القبائل العبرانية لم يكن اتحاداً قومياً، بل كان تجمعاً أحادياً للقبائل، التى يجمعها النسب ليعقوب، وشريعة موسى، ووقوعها تحت سيطرة الشعوب الكبرى، فى كنعان، وخارجها. ثم كان ظهور آشور، وبابل، واستعادة مصر سيطرتها على حدودها الشرقية، وبذلك زال الفراغ الذى سمح بظهور تلك المملكة(٣٧).

يقال إن مملكة سليمان، التى توصف فى "التوراة" باعتبارها دولة عظمى إقليمية، كانت، على أقصى تقدير، مملكةً قبليةً صغيرة، ولم تكن فى "أرض إسرائيل" ظروفٌ مواتية لقيام مملكةٍ واسعة، فى تلك الفترة، ولهذا السبب لم تقم فيها معابد شامخة، مثل مصر(٣٨).

أما الهيكل الذى بناه الفينيقيون لسليمان، فلم يكن سوى معبداً ملحقاً بقصر سليمان، وكان رمزاً لقوةِ الدولة، وقبلةً للمُوَحِدِين، ثم أصبح مركزاً عاماً لعبادةِ العبرانيين، والتى تأثرت بالأساليب الكنعانية حتى فى العبادة(٣٩).

المهم أن الدولتين اللتين، أصبحتا متعاديتين، متحاربتين، وقعتا فى سياسةِ المضاربةِ بين مصر والعراق، أو الخضوع لهما، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر، مرتين، على يد "شيشنق"، إلى أن جاء دور المملكة الشمالية، حيث قضى عليها "سرجون الآشورى" نهائياً، فى القرن الثامن ق.م. (٧٢١ق.م.)، ثم قام " نبوخذ نَصَّر" البابلى بتدمير المملكة الجنوبية، فى القرن السادس ق.م.، حيث دمر أورشليم، والهيكل، عام ٥٨٦ق.م.(٤٠).

بذلك زالت إلى الأبد دولة اليهود فى فلسطين، بعد حياةٍ طولها أربعة قرون فقط، بينما لم تزد إقامة اليهود فى فلسطين عن ستةِ قرون من (١٢٠٠ ـ ٥٨٦) ق.م.(٤١).

بزوال مملكة سليمان، انتهت المرحلة السديمية، التى بدأت بهجرة الجماعات السامية من شبه الجزيرة العربية، وبدأت مرحلةِ الإمبراطوريات القديمة، التى بدأت بالتهجير الآشورى، والبابلى

للجماعات اليهودية.

بسقوط المملكة الشمالية، تماماً، في يد الآشوريين، عام ٧٢٤ ق.م.، قام سرجون الثانى بتهجير رؤساء القبائل، والعشائر اليهودية، وبعض الحرفيين والفلاحين، وقام بتوطين عناصر سامية، وآرامية، من بلاد الرافدين، وغيرها من الشعوب المساعدة للآشوريين، بدلاً منهم. ويبدو أن تلك الآلية - التهجير والتوطين - هى التى كانت متبعة فى معظم الإمبراطوريات القديمة، لعدم وجود فائض بشرى، يسمح بقيام جيش نظامى، وقوة احتلال مستمرة، وقد تم توطين بعض المهجرين من الجماعات اليهودية فى المناطق الآشورية، على ضفاف نهر الخابور، والبعض الآخر فى مدن ميديا، ويقال إنهم اندمجوا فى محيطهم السكانى، وتبنوا العبادات الوثنية، واعتنقوا المسيحية بعد ظهورها، وسُمِح لهم بممارسة شعائرهم الدينية(٤٢).

أما المملكة الجنوبية، فقد قام نُبُوخَذ نَصَّر بحملتين ضدها، لإخماد التمرد فيها، كانت الأولى عام (٥٩٧ ق.م.)، ونفى على إثرها حوالى ٨٠٠٠ يهودى، وبعدها بحوالى ثمانى سنوات عام (٥٨٧ ق.م.) قام نبوخذ نصر بحملة ثانية، سبى فيها حوالى ربع سكان "يهوذا"، وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى، كما قام بتدمير الهيكل، وقد استمرت فترة التهجير حوالى ٥٠ أو ٧٠ عاماً، وتم توطين المهجرين فى مزارع جديدة، بالقرب من بابل، حيث تم تعويضهم بأراضٍ أكثر خصوبةً من أرض فلسطين، وسمح لهم بالاحتفاظ بعباداتهم، وشعائرهم الدينية، وقد ازدهر حال المهجرين فى بابل، واتخذوها وطناً ثانياً، هاجر إليه الكثير منهم، بعد ذلك، طواعيةً(٤٣).

للسبب نفسه الذى هُجِرَ به اليهود من "يهوذا" و"إسرائيل"، سمح (كورش) الفارسى، عام ٥٣٨ ق.م.، بعد هزيمة بابل، بعودة المهجرين إلى فلسطين، لكى يكون له موالون فى فلسطين، يشكلون توازناً فعالاً ضد الموالين للمصريين هناك. وتتذكر الجماعات اليهودية، دائماً، فضل كورش فى عودتهم(٤٤). وقد كان العائدون قلةً ضئيلة، تقدر بنحو خمسين ألفاً، وعادت معهم جماعاتٍ غيرَ يهودية، وحتى هذه الفئة العائدة لم تجد ترحيباً، لأن الأرض - التى كانوا يعتبرونها أرض أجدادهم - كان يحتلها أسرى سرجون، الذين وُطِنوا بها. ولذلك سكنوا فى مناطق يهوذا الجبلية(٤٥).

أما غير الراغبين فى الهجرة - التى سمح لهم كورش بها - إلى فلسطين، كان عليهم تمويل بناء الهيكل - الذى سمح لهم كورش أيضاً بإعادة بنائه -، لذلك، فكورش هو غير اليهودى الوحيد، الذى أُشير إليه فى "العهد القديم" بالماشيح، وتعتبر خطته المتمثلةُ فى " العودةِ والتمويل"، خطةً استيطانيةً كاملة، وقد تأثر بها الفكر الصهيونى واليهودى تأثراً شديداً(٤٦)، فاجترها وحاول التماهى معها.

بعد قرنين من السيادة الفارسية على فلسطين، حتى عام ٣٣٣ ق.م.، هُزِمَ جيش الفرس، على يد الإسكندر المقدونى. وأثناء عهده فقدت الجماعات اليهودية الوحدة الحضارية،التى كانت تتمتع بها داخل الإمبراطوريات الشرقية، مثل مصر، وآشور، وبابل، وفارس، إذ كان لليونانيين مركزان ثقافيان، هما بابل، وفلسطين، ضم كلٌ منهما جماعةً يهوديةً، تفاعلت مع مؤثراتٍ حضاريةٍ مختلفةٍ، شرقيةٍ وغربية(٤٧).

انقسم قادة الإسكندر، بعد موته، وكان أبرزهم سلوقس، وبطليموس،

الذى كانت مصر من نصيبه، كما استولى على غزة، التى ظلت تحت حكمه، قرناً من الزمان، وأصبح اليهود تحت حكم مصر، وهاجر الكثير منهم إليها، وقد وقعت فلسطين تحت حكم البطالمة، عام ٣٠١ ق.م.، حتى استولى عليها السلوقيون، عام ١٩٨ ق.م.، ولم يتعرضوا فيها لليهود، كما لم يصادف اليهود معهم أية معاناة(٤٨).

كان فى مصر جالية يهودية من المهاجرين السابقين، اتخذوا من الإسكندرية مركزاً لهم، وكان ذلك قبل سقوط الهيكل.أى أن سقوط الهيكل لم يكن سبب انتشارهم، كما يدعون(٤٩). لكن سبب انتشارهم الحقيقى هو اندماجهم فى الحضارة الإغريقية، شأنهم شأن الشعوب الأخرى، التى جرفها تيار الثقافة اليونانية(٥٠).

كان السلوقيون معنيين بنشر الثقافة الهيلينية، وقد واجهت الجماعات اليهودية هذا الخطر، مع كل الفتور والارتداد الذى أصاب النشاط اليهودى الدينى، وما للهيلينية من إباحيةٍ وجاذبية. وكان أنطيوخوس الرابع (١٧٥ – ١٦٤ ق.م.)، متعصباً فى نشر الهيلينية، وحاول أن يصبغ فلسطين بها، كما أعلن نفسه إلهاً(٥١). فاصطبغت الأرستوقراطية اليهودية بها، وقبلت إجراءات نشرها. ثم قام أنطيوخوس بحملته على مصر، وانتشرت إشاعة قتله، فاندلعت الإضطرابات، فعاد وقضى عليها (عام ١٦٨ ق.م.)، وقام بتوطين عناصر غير يهودية فى القدس، لتكون ركيزةً لدعاة الهيلينية. وبجانب نهب الهيكل، فقد لجأ أنطيوخوس للقوة، لإبعاد الجماعات اليهودية عن شعائرها، بتواطؤ من الأرستوقراطية اليهودية، ولم تكن تصرفات أنطيوخوس، تلك، ناتجةً عن تعصب دينى لهدم اليهودية، أو القضاء على اليهود، بل لدمج فلسطين فى

إمبراطوريته، لتصبح إقليماً آمناً، وأن تكون العناصر البشرية الموجودة بها موالية له[٥٢].

على الرغم من التطور والمرونة التى نالت حياة الجماعات اليهودية بتبنيهم عادات يونانية كثيرة، واستعمالهم اللغة اليونانية، فإنهم كانوا يضمرون فى أنفسهم سوء المعاملة، واختمرت لديهم فكرة الثورة ضد الملك، وجاءت هذه الفكرة من المحافظين بين ظهرانيهم، فولدت الثورة المكابية على يد ماثياس، بقرية مودين، معتمداً على النزعة الدينية، التى جذبت له البعض، واشتبكوا مع السلوقيين، ثم حدثت مجزرةً، فى يوم السبت، المقدس لدى اليهود، وقُتل عدد كبير منهم، مما أثار مشاعر الآخرين، فاندلعت الثورة فى أماكن شتى، ثم انتقلت القيادة إلى يهوذا - المسمى بالمكابى - والذى اعتمد على حرب العصابات، واستولى على بيت المقدس عام ١٦٥ق.م.[٥٣].

فى هذه الأثناء مات أنطيوخوس، وأُعلن السلام، وظفرت الجماعات اليهودية بالحرية الدينية، لكن سياسياً، لم تكن "يهوذا" تتمتع بأى حرية سياسية، وظلت خاضعةً للسوريين، وبعد نضال المكابيين، لمدة عشرين عاماً لنيل حريتهم السياسية، ظفروا بها، عام ١٤٣ ق.م.[٥٤]. واستقلت يهوذا.

إبان العصر المكابى، ظهرت روما فى الأفق، وكانت يهوذا حافلةً بالخلافات، التى جعلتها لا تستطيع الصمود أمام الدولتين الكبيرتين، سورياالسلوقية، ومصر البطلمية، فعقدت يهوذا معاهدةً مع روما، أملاً فى الخلاص من تلك الورطة، ومن وراء تلك المعاهدة ربحت روما فتح طريق لها فى الشرق[٥٥].

انتهز الحاكم الروماني، بومباى، فرصة الخلافات والحرب الأهلية، واستولى على "يهوذا"، وكان الرومان يطمحون لتوسيع مملكتهم، وكانوا يدسون أنوفهم فى الشئون الداخلية لدول الشرق الأوسط، فكان لابد من التصادم، وقد رأت روما أن تسخو على الجماعات اليهودية بوعود الاستقلال، فتركت المجلس الدينى يعمل بحرية، أما المجلس السياسى فكان لعبةً فى يدها، مما تسبب فى تذمر اليهود، وأحدث القلاقل(٥٦).

لقد تواترت تمردات الجماعات اليهودية على الحكم الروماني، الذى رد بتخريب أورشليم، والهيكل، وإبادة اليهود، فى مذبحة عام ٧٠م، والتى صَفَّت أغلبهم محلياً، وفَرَّ منها أقلهم إلى مصر وسوريا، ثم عاد بقايا اليهود للتمرد مرةً أخرى، عام ١٣٥م، وقوبلوا بمذبحةٍ نهائيةٍ، قضت إلى الأبد على مصير الجماعات اليهودية فى فلسطين، فدُمِرَت أُورشليم، والهيكل مرةً أخرى، وصُفيت بقايا الجماعات اليهودية بالإبادةِ والهجر(٥٧).

أما من تبقى من الجماعات اليهودية، فقد تكفلت الهجرة القسرية بتصفيته، حيث حَرَّمَ الرومان عليهم دخول القدس، وطردوهم من فلسطين، إلى كل أجزاء الإمبراطورية، فقد تبعوا الرومان إلى إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، حتى الراين، وكانت فرانكفورت، وعاصمتها فرانكويا، عاصمة يهود الشتات الجديد، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه، إلى الأبد، علاقة اليهود بفلسطين، سياسياً، وسكانياً. وما تبقى، بعد هذا وذاك، من يهود فلسطين، فمجرد شراذم ضئيلة،ازدادت ضآلةً، فيما بعد، بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية(٥٨).

بتوقف رحلة التنقيب ـ البحث ـ عن تاريخ الجماعات اليهودية، عند

العـهـد الرومـانى، نخلص إلى أن المسـتـفـيـد الوحيـد من جـراء هذا الخداع التاريخى الواضح، هو التجمع الصهيونى الحالى، الذى يسعى بدأب، وبلا حرج، لكى يبرهن على إنه امتداد ليهود القرن العشرين قبل الميـلاد، حتى يعثـر هـذا التـجـمع على ضـالتـه فى مـرجـعـيـة دينيـة، ومشـروعـية تاريخية، تمكنه من فرض مشـاريعـه الاسـتيطانـية، فـوق أرضـنـا العـربيـة فى فلسطـين، هـذا فـضلاً عن المتغـيرات السـيـاسـيـة العالمية، لاسـيما الإمبريالية ـ التى تـتـبادل الصهيونية معها الخدمات ـ، والتى تجعل الصـهـيونية فى حالة اسـتغـناء عن المرجعـية والمشـروعـية المومأ إليهما.

كاد اليهود أن يـذوبوا، تماماً، فى الأماكن التى وفـدوا إليها، لولا أن اسـتـجـد مـا حـال دون ذلك، حـين تحـول ملك الخـزر، لوبوان، سنة ٧٤٠م، إلى اليهودية، وتبعه رعاياه، ومن الخـزر انتـشـروا، إلى معظم أقطار أوروبا، وغدا هـؤلاء الآريـون يشـكلـون الأشـكـينـاز من اليهود، مقـابل السـفـارديـم، المنحـدرين من الساميـين. وشَـكَّـلَ الإشـكـينـاز منذ ستـينات القرن العشـرين، نحـو ٩٠ فى المائة من مجموع يهـود العـالم(٥٩).

*** هوامش الفصل الأول :**

(١) د. عبد الوهاب المسيرى، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٩٩ م، المجلد الرابع والأغلفة الداخلية للمجلد من صـ١٣ ـ صـ١٧.

(٢) المرجع نفسه، من صـ ١٣ ـ صـ١٧.

(٣) د.عبد الجليل شلبى، اليهود واليهودية، القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٧م، صـ١٤.

(٤) المرجع نفسه، من صـ١١ ـ صـ١٤.

(٥) المرجع نفسه، من صـ١٢ ـ صـ ١٥.

(٦) رجاء جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ط ٢، ترجمة محمد هشام، القاهرة، دار الشروق، صـ ٤٣.

(٧) شلبى، مرجع سبق ذكره، صـ١٣.

(٨) المرجع نفسه، صـ١٣.

(٩) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١١٢.

(١٠) د.جمال حمدان، اليهود، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٦، ط٢، صـ٥٧.

(١١) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ٨٢.

(١٢) حمدان، مرجع سبق ذكره، صـ٥٨.

(١٣) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٣٦.

(١٤) المرجع نفسه، صـ١٤٠.

(١٥) زئيف هرتزوج، التوراة.. لا إثباتات على الأرض، الحفريات أنهت أسطورة التوراة، هاآرتس، ١٩٩٩/١٠/٣٠. انظر الترجمة العربية للمقال فى العصور الجديدة، "القاهرة"، العدد الثامن، السنة الأولى، إبريل/ نيسان٢٠٠٠، صـ٢٣٩ـ ٢٤٨، مع تعليق على المقال بقلم فيصل الخيرى صـ٢٣٢– ٢٣٩.

(١٦) أحمد عثمان، تاريخ اليهود، الجزء الأول، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٤، صـ٦٤.

(١٧) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٤٠.

(١٨) عثمان، مرجع سبق ذكره، صـ٩٦.

(١٩) المرجع نفسه، صـ١٠٠، صـ١٠١.

(٢٠) المرجع نفسه، صـ١٠٦.

(٢١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٢) جارودى، مرجع سبق ذكره، صـ٦٩، صـ٧٠.

(٢٣) عثمان، مرجع سبق ذكره، صـ١١٤.

(٢٤) المرجع نفسه، صـ١٢٠.

(٢٥) هرتسوج، مرجع سبق ذكره، من صـ٢٣٨ ـ صـ٢٤١.

(٢٦) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٤٠.

(٢٧) عثمان، مرجع سبق ذكره، صـ١٢٧.

(٢٨) المرجع نفسه، صـ١٢٧.

(٢٩) المرجع نفسه، صـ١٢٨، صـ١٢٩.

(٣٠) المرجع نفسه، من صـ١٣٠ ـ صـ١٣٣.

(٣١) شلبى، مرجع سبق ذكره، صـ٤٧.

(٣٢) المسيرى، مرجع سبق ذكره، من صـ١٧٣ ـ صـ١٧.

(٣٣) د. عبد التواب مصطفى، نقض شريعة الهيكل وكيف تعود القدس؟، القاهرة، مركز الإعلام العربى، ٢٠٠٣، صـ١٥.

(٣٤) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٧٥.

(٣٥) هرتسوج، مرجع سبق ذكره، من صـ٢٣٨ ـ صـ٢٤١.

(٣٦) شلبى، مرجع سبق ذكره، صـ١٣.

(٣٧) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٧٥، صـ١٧٦.

(٣٨) فيصل الخيرى، قراءة لمقال زئيف هرتزوج " الحفريات أنهت أسطورة التوراة"، العصور الجديدة، "القاهرة"، العدد الثامن، السنة الأولى، إبريل/ نيسان ٢٠٠٠، صـ٢٣٨ـ ٢٤٠ .

(٣٩) مصطفى، مرجع سبق ذكره، صـ١٦.

(٤٠) حمدان، مرجع سبق ذكره، صـ٦٠.

(٤١) المرجع نفسه، صـ٦١.

(٤٢) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٨٨.

(٤٣) المرجع نفسه، صـ١٨٩.

(٤٤) المرجع نفسه، صـ١٩١.

(٤٥) حمدان، مرجع سبق ذكره، صـ٦٢.

(٤٦) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ١٩٦.

(٤٧) المرجع نفسه، صـ٢٠٣.

(٤٨) شلبى، مرجع سبق ذكره، من صـ٨٥ ـ صـ ٨٧.

(٤٩) حمدان، مرجع سبق ذكره، صـ٦٦.

(٥٠) شلبى، مرجع سبق ذكره، صـ٨٧.

(٥١) المرجع نفسه، صـ٨٨، صـ ٨٩.

(٥٢) المسيرى، مرجع سبق ذكره، صـ٢٠٩.

(٥٣) شلبى، مرجع سبق ذكره، صـ٩٠.

(٥٤) المرجع نفسه، صـ٩٢.

(٥٥) المرجع نفسه، صـ٩٣.

(٥٦) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٥٧) حمدان، مرجع سبق ذكره، صـ٦٩.

(٥٨) المرجع نفسه، صـ٧٠، صـ٧١.

(٥٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى : آرثر كستلر.القبيلة الثالثة عشر ويهود

اليوم، ترجمة/ أحمد نجيب هاشم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى،١٩٩١ .

## بالإضافة إلى مراجع أخرى :

(١) ألمر برجر، اليهودية دين لا قومية، القاهرة، دار المعارف، د. ت.

(٢) د. سيد محمود القِمنى، النبى إبراهيم والتاريخ المجهول، القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩٠، ط١.

(٣) عصام الدين حفنى ناصف، اليهودية فى العقيدة والتاريخ، القاهرة، دار العالم الجديد، أغسطس/ آب ١٩٩٧م، ط ١.

(٤) محمد عزة دروزة، تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، الجزء الثالث، القاهرة، ١٩٨٧.

(٥) د. حسين شريف، المفهوم السياسى والإجتماعى لليهود عبرالتاريخ، الجزء الأول، القاهرة، د.ن.، د.ت. .


الفصل
الثانى

# السامية ومعاداتها بين الحقيقة والتسخير

# 2

أحمد زكريا محمد فرج

هل خطر ببال " سام بن نوح "، أنه سيأتى يومٌ يساء فيه استخدام اسمه، على النحو الذى اقترفته الصهيونية؟!

فى سبيل تحقيقها لمشروعها الاستعمارى، حشدت المؤسسات الصهيونية، العديد من المرتكزات النظرية، وعمدت إلى ترسيخها كعقائد ومسلمات وأسس، وبصورةٍ تبدو وكأنها لا تقبل الشك، على المستويات السياسية والدينية والحقوقية، وثبتتها فى عقول وأذهان التجمعات اليهودية فى مختلف بلدان العالم، وغيرها من التجمعات الجماهيرية، ونُخَبِها السياسية.

ولعل من أبرز تلك المرتكزات النظرية مقولة " العداء الأبدى للسامية "، تحت دعوى أن كل شعوب الأرض، تضمر شعوراً تلقائياً وحتمياً، بالكراهية تجاه اليهود، ذلك المفهوم الذى عمل مثقفو الحركة الصهيونية ودُعاتها ومنظروها، على التقاط كل فرصة، لترسيخه وتأكيده، بدأب وأناة، والترويج الدعائى والإعلامى له، منذ نشأة الحركة، وحتى الآن.

ويثير هذا الإصرار من قِبَل دعاة الحركة الصهيونية، العديد من علامات الاستفهام، من قبيل (متى؟ وكيف؟ ولماذا؟)، ولكن قبل أن نبحر فى محاولات مناقشة هذه الأدوات، فلنُلقِ نظرةً على البدايات.

## ما السامية؟

## "المصطلح، الدلالة، الجذور"

النسبة فى كلمة "ساميون" إلى سام، الابن الأكبر لثلاثة أبناءٍ لنوح: سام، وحام، ويافث، وقد تم تأسيس ذلك المصطلح، وتلك النسبة، على ما ورد فى الإصحاح العاشر، سفر التكوين من التوراة، بهذا الخصوص[1]. ويُطلَق المصطلح على مجموعة من الشعوب، عاشت فى رقعة كبيرة من الأرض (تضم شبه الجزيرة العربية، والشام، وبلاد الرافدين)، تحدثت بمجموعة من اللغات المتقاربة، هى اللغات السامية. وتشمل التسمية شعوباً، مثل الآشوريين، والبابليين، والآراميين، والكنعانيين، والفينيقيين، والعموريين، والمؤابيين، والأدوميين،

والعمونيين، والعبرانيين، كما تشمل جزءاً كبيراً من سكان إثيوبيا، فيما بعد. وفى الوقت الحاضر، يمثلهم العرب (من الناحية الأساسية).

ينتمى العبرانيون، أى اليهود القدامى، إلى الشعوب السامية، وليس إلى مجموع اليهود بوجه عام، ذلك أن أعداداً كبيرة من الأفراد والقبائل غير السامية، مثل الخزر، قد تهوَّدت(٢). ويعيد باحث صهيونى معروف جذور غالبية اليهود، إلى دولة الخزر (والتى تبنت الديانة اليهودية حوالى ٧٤٠ م، إلى أن تم تدمير إمبراطوريتهم فى القرن الثالث عشر الميلادى)(٣)، وبالتالى لا يمت هؤلاء بصلة، عرقية أو أنثروبولوجية، لليهود من نسل سام ابن نوح، من قريبٍ أو بعيد، وقد استخدم الباحث نفسه فى سبيله لإثبات ذلك، أدلة تاريخية، وأخرى قائمة على علم الأجناس(٤). ويمكننا على هذا الأساس التمييز" إثنياً " بين اليهود القدامى (العبرانيين، الذين ينتمون للنبى إبراهيم، وصولاً إلى سام بن نوح)، والذين يشكلون أقليةً معزولة الآن، (السُمرَة، مثلاً، فى جبل جرزيم بنابلس)، عن سائر يهود العالم، بشقيهم الإشكيناز (الغربيين)، والسفارديم (الشرقيين).

كان العالم النمساوى "اليهودى"، شلوستر (Schlozer)، أول من استخدم لفظ (السامى)، عام١٧٨١م (٥)، مطبوعاً، للتعبير عن مجموعة الشعوب، التى سكنت قديما، المنطقة الممتدة من البحر المتوسط غرباً، إلى الفرات شرقاً، ومن أرض الرافدين شمالاً، حتى بلاد العرب جنوباً، وهى الآراميون، والآشوريون، والعبريون، على أساس تَحَدُّرِها من جَدٍ واحد، هو سام بن نوح. ثم تولى "إيشهورن" نشر هذا الإصطلاح

والدفاع عنه، وإن ادعاه لنفسه[٦]. ومع اتساع الكشوفات الأثرية وتقدم العلوم الإنثربولوجية، اتسع استخدام المصطلح ليشمل أقواماً أخرى[٧]، مثل البابليين، والكنعانيين، والفينيقيين، والعموريين، والمؤابيين، والأدوميين، والعمونيين، كما يشمل جزءاً كبيراً، من سكان أثيوبيا فيما بعد، والعرب[٨]. نتيجة وجود عناصر تشابه عديدة فيما بين هذه الأقوام، لعل من أبرزها رابطة اللغة، حيث تعود لغات أغلب تلك الأقوام، إلى جذر لغوى واحد، إلى حد تطابق العديد من المفردات فيما بينها، ناهيك عن التقارب الجغرافى، لمواطن تلك الشعوب، والتشابه فيما بينها، فى الأنظمة الاجتماعية، والأنساق الدينية [٩]، ومن ثم تداول علماء الأنثربولوجيا ذلك المصطلح، على أنه توصيف علمى، يعبر عن تلك الشعوب، لما لها من سمات أنثروبولوجية مشتركة.

**قَسَّمَ علماء الأنثربولوجيا، الساميين، إلى ثلاثة أقسام:**

* **القسم الشرقى**، وضم البابليين، والآشوريين، والكلدانيين.
* **القسم الغربى**، وضم الكنعانيين، والفينيقيين، والآراميين، والعبرانيين، والسريان، والتدمريين، والنبطيين.
* **القسم الجنوبى**، وضم العرب، والأحباش، بمختلف لهجاتهم.

أما من سكن فلسطين من هذه الأقوام، فتمثل فى الكنعانيين، وهم قبيلة من الساميين الشماليين نزحت، أصلاً، من الجزيرة العربية، فى عام ٢٥٠٠ ق.م.، وفى تقدير آخر ٣٥٠٠ ق.م.، واستقرت فى فلسطين، وارتحل جزء منها إلى لبنان، شمالاً، مكوناً ما عرف

بالفينيقيين. وإلى جانب الكنعانيين، عاشت قبائل سامية صغرى، كالأدوميين والعموريين والمؤابيين، على تخوم "أرض كنعان"، خاصة حول جنوب البحر الميت، وعاش العموريون إلى الشمال منه.
كان على العبرانيين، الذين لم يختصوا بأرضٍ، مثل باقى القبائل المذكورة، (نظراً إلى هجرتهم المتأخرة نسبياً، إلى تلك المنطقة، عن باقى تلك الشعوب، فيما يبدو)، كان عليهم، كى يستقروا فى "أرض كنعان"، التى تميزت بالخصب، واعتدال المناخ، أن يحاربوا الكنعانيين، ولكنهم فشلوا فى انتزاع انتصارٍ منهم، الأمر الذى حدا بالعبرانيين إلى الاكتفاء بالإقامة على التلال والأراضى الفقيرة فحسب، وظلت السهول الخصبة الغنية فى أيدى الكنعانيين الأصليين، حتى منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد، حين هاجر يعقوب (إسرائيل) وبنوه إلى مصر، واستقر فى أرض جاسان، نحواً من (٣٥٠) عاماً، إلى أن خرج بهم النبى موسى (الجيل السابع بعد النبى إبراهيم)، حوالى ١٣٠٠ق.م.، قاصداً فلسطين، إلا أن خوف اليهود، من محاربة الكنعانيين (العماليق) أدى بهم إلى معصية أوامر الرب، فعوقبوا بالتيه فى سيناء أربعين سنة، إلى أن قادهم يوشع بن نون، إلى نهر الأردن، حيث استولى على بعضٍ من "أرض كنعان"، دون العاصمة يبوس (القدس)، وساحل فلسطين. وفى فجر الألف الأول قبل الميلاد، وَحَّدَ داوود القبائلَ العبرانية (الأسباط) الاثنتى عشرة، وأسس مملكة إسرائيل، ولم تلبث أن انشطرت، بعد خليفته سليمان، إلى مملكة يهوذا فى الجنوب، وإسرائيل فى الشمال، وكان بينهما عداءٌ شديد، ثم قضى الآشوريون على المملكة الشمالية (عام٧٢١ ق.م.)،

وقضى نبوخذ نصر على المملكة الجنوبية (عام٥٨٦ ق.م.)، ومن ثم لم تقم لهم قائمةً فى فلسطين، من بعد حياةٍ استمرت أربعة قرون فقط(١٠).

**من المفيد هنا الإشارة إلى عدة أمور:**

١- (أن منشأ المصطلح، تم استقاؤه من كتاب عقائدى دينى، يؤمن به جزء يسير من سكان العالم، باعتباره حقائق ثابتة، لا يرقى إليها الشك، فى حين لا يتفق أغلب سكان الأرض على تلك الفرضية، مما يخرجها من دائرة اليقين الإجماعى، وإن تم التعامل مع لفظة "السامية"، فيما بعد، بوصفها مصطلحاً، اتفق العلماء، مجازياً، على دلالته.

٢- (قد يكتسب المصطلح السابق مصداقيته، فيما يتعلق بالشعوب التى تم دراسة تواريخها، استرشاداً بالرواية التوراتية، بعد تأييدها بالمكتشفات الأثرية، والأساليب العلمية، التجريبية والبحثية، المُقَرَة علمياً، وهذا ينطبق على معظم الشعوب السابق ذكرها، باستثناء القبائل العبرانية، التى اعتمد التأريخ لها، على ما ورد فى التوراة فحسب، وهو ما يقلل من مصداقية ذلك التأريخ، علمياً. ولربما من المفيد هنا، إلقاء نظرة على المقال الهام الذى كتبه عالم آثار إسرائيلى مرموق، حيث افتتحه قائلاً:"بعد ٧٠ عاماً من الحفريات المكثفة فى أرض إسرائيل توصل علماء الآثار إلى نتيجةٍ مخيفة:لم يكن هناك أى شئ، على الإطلاق، حكايات الآباء مجرد أساطير، لم نهبط إلى مصر، ولم نصعد من هناك، لم نحتل البلاد، ولا ذكر لإمبراطورية داود وسليمان، الباحثون والمهتمون يعرفون هذه الحقائق منذ زمن، أما المجتمع، فلا. سيصدم كثير فى العالم، وليس مواطنو إسرائيل وأبناء الشعب اليهودى فحسب، لدى

اطلاعهم على الحقائق التى يعرفها، منذ زمن علماء الآثار الذين يقومون بأعمال الحفر فى أرض إسرائيل، ففى العشرين سنةٍ الأخيرة هناك ثورة حقيقية فى نظرة الباحثين الإسرائيليين إلى التوراة كمصدر تاريخى. إن معظم العاملين فى الأبحاث العلمية فى مجالات التوراة والآثار وتاريخ شعب إسرائيل، الذين طالما بحثوا عن أدلة ميدانية لإثبات صحة حكايات التوراة، يوافقون، الآن، على أن مراحل تشكل شعب إسرائيل كانت مختلفةً، تماماً، عما ورد فى التوراة"(١١).

٣- إن تطابق الملامح، والخصائص الجسمانية، بين الشعوب السامية، أمر غير قائمٍ، فالتباين واضح فى هذا المجال، بين هذه الشعوب من جهة، ومن ثم فى داخل كل شعب منها من جهةٍ أخرى(١٢). فضلاً عن أن التوزيع الجغرافى الراهن لليهود فى العالم، له قيمةً ودلالةً أنثروبولوجية، فعلى الرغم من أن اليهودية بدأت ديانةً جغرافيةً وعشائرية قبلية معاً، أى قاصرةً على بيئةٍ جغرافيةٍ محدودة ومرتبطة بقبيلة أو عشيرةٍ محددة، إلا أنها منذ انتشار اليهود فى العالم، فقدت تلك الصفات، وأضحت ديانةً مفتوحة، واعتنقتها أجناس مختلفة من البشر، متحولين إليها عن الوثنية أو المسيحية، سواءً كانوا أفراداً، أو تجمعات بشرية (كاليهود الفلاشا فى أثيوبيا، واليهود السود من التاميل جنوب غرب الهند، واليهود القرائين فى طوروس)، أو ممالك بكاملها (مملكة الخزر، فى القرن الثامن الميلادى). فضلاً عن التغيرات فى القيم الاجتماعية الناجمة عن تطور العلاقات الاقتصادية فى المجتمعات الرأسمالية، فى القرون الأربعة الأخيرة، والتى تمخضت عن التزاوج المختلط بين اليهود وغيرهم، والعلاقات الجنسية التى قامت خارج أُطُر الشرعية الدينية، وما أسفرت عنه تلك العلاقات من أجيال مخلطة، تفتقر

لأى نقاءٍ عرقى، فما عاد اليهود عنصراً متميزاً بعينه، متجمداً على ديانة، ولا الديانة عادت مرادفةً لعنصر جنسى واحد[١٣]. وفى الواقع فإن علماء الأجناس، قد انتهوا، منذ أواسط القرن العشرين، إلى أن الحديث عن نقاء الأجناس قد أصبح خرافةً علمية، حسب تعبير أحد علماء الأنثربولوجيا المعاصرين، مما يسقط احتمالية تحدر تلك الشعوب من جدٍ واحد، فلا يتعدى الأمر حدود المعتقدات الأسطورية وحسب[١٤]. وما تَمَسُّك المشروع الصهيونى بمقولتى "النقاء العرقى"، و"شعب الله المختار"، إلا للتأكيد على أسطورة "القومية التاريخية الواحدة" ذريعة اغتصابهم فلسطين، تحت دعوى العودة إلى أرض الآباء، التى تشردوا منها، قديما.

٤- (طبقاً لرأى أحد أهم الباحثين الأنثروبولوجيين العرب[١٥]، فإن الملاحظة التاريخية أثبتت أن اللغة، وحدها، لا تصلح أساساً لأى تحديد عنصرى، لأن الفئات البشرية لها قابليةٍ عالية لالتقاط اللغات، وفقاً لأهدافها المصلحية، والعمرانية، أو تحت تأثير الضغوط التاريخية، بالوقوع تحت غزو الآخرين، أو الامتزاج الحضارى عبر التاريخ.

٥- (لا تتفق قائمة الأنساب التوراتية مع حقائق التاريخ المعروفة، فهى تخرج الكنعانيين من قائمة الساميين، لتضعهم مع الحاميين، (أبناء حام بن نوح)، بينما تعد عيلام، ومنه "العيلاميون"، من أبناء سام. مع أن الباحثين يجمعون، على أن الكنعانيين، يشكلون إحدى الجماعات الكبيرة من القبائل السامية، ويرتبطون مع تلك القبائل، بروابط تاريخية ولغوية قوية، فقد هاجر الكنعانيون قديماً، من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، فى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد، مقيمين مدناً عامرةً، ذات أسماءٍ كنعانية، مثل "أريحا"، و"بيت شان"،

و"مجدو"، و"جازر"، وقد كانوا يتكلمون واحدةً من اللغات السامية الغربية، التى تفرعت عنها الفينيقية، والأوجاريتية، واستخدم الكنعانيون فى الكتابة حروفاً "مسمارية ـ هجائية" عددها ثلاثون حرفاً، وتدل على ذلك كتاباتهم، التى كشفت عنها التنقيبات فى مدينة أوغاريت (رأس شمرة) شمال غرب سورية، والتى يرجع تاريخ تدوينها، إلى القرنين الخامس عشر، والرابع عشر قبل الميلاد. كما أن عيلام، التى تقع فى الأراضى الشرقية من إيران، لا يمت سكانها "العيلاميون"، بصلة، عرقية كانت أو لغوية، إلى ما يطلق عليه "عائلة اللغات السامية"(١٦).

٦- نسبت التوراة إلى كنعان، عدة أبناء، منهم "حِث"، الذى انحدر منه "الحيثيون"(١٧)، والحقيقة هى أن الحيثيين من الأقوام "الهندو أوروبية"، التى استوطنت بلاد الأناضول، وتنتمى لغتهم إلى عائلة اللغات "الهندو أوروبية"، وعليه تكون نسبتهم إلى كنعان، والكنعانيين، بلا سند تاريخى، وتنافى ما يثبته العلم.

٧- (إن الحديث فى تأصيل النسب شىء، والمغالاة فى هذا التأصيل شئ آخر، فقد يكون معقولاً ومنطقياً أن يعرف أبناء أسرةٍ، أو عشيرةٍ، نسبهم بشىء من الدقة النسبية، فى حدود معينة، أما أن يدفع هذا النسب، تأصيلاً إلى عهد سام بن نوح، وفى بعض الأحيان، إلى عهد آدم أبى البشرية الأول، فأمر لابد أن يدخل فيه قدر كبير من النحت والخيال(١٨).

٨- جَلىٌّ للعيان، أن كل الشعوب السامية، سابقة الذكر، قد ذابت، عبر التاريخ، وتحللت ملامحها المميزة والفارقة لسماتها، باستثناء

العرب، فهم أكثر الجماعات السامية قرباً مما يمكن تسميته فى الخطاب الحضارى "السامى الأصلى"، كما أن اللغة العربية، أقرب اللغات الحية إلى الجذور اللغوية السامية الأصلية، علاوةً على أن العرب يشكلون أمة، وقوميةً واحدةً، حتى الآن، تتحقق فيها السمات المُحَدِدَة للبناء القومى، من وحدة اللغة، والتجمع البشرى فى رقعة جغرافية متصلة، ووحدة الظروف التاريخية المتقاربة، والتقارب والتواكب المتشابه فى تطور العلاقات الاجتماعية، والظروف الاقتصادية المتقاربة، والمتشابكة، عبر مراحل التاريخ، إضافةً إلى بناء ثقافى، وقِيَمِى، وأخلاقى متشابه، تحوطه مجموعة من النظم الاجتماعية والسياسية، والعادات، والتقاليد المتقاربة، والمتطابقة، فى أغلب الأحيان. ولا ينطبق هذا القول، بحال، على الجماعات البشرية التى تدين باليهودية. فقد مر اليهود بأربع دورات من الشتات، أولها ـ الشتات البابلى، وثانيها ـ الشتات الهيلينى، الذى بدأ مع فتوحات الإسكندر الأكبر– وثالثها ـ والأخير فى تاريخ بنى إسرائيل القديم، الشتات الرومانى، والرابع ـ الشتات الحديث، خلال القرنين الأخيرين(١٩). وما بين الشتات الثالث والرابع، قامت وتفككت المملكة الخزرية، التى تبنت الديانة اليهودية، وتوزع سكانها فى العالم، بعد انهيار مملكتهم، مُشَكِّلين الكتل الأساسية، والتجمعات الرئيسية، لليهود فى عالم اليوم. وقد ترتب على دورات الشتات المذكورة، خاصة ما يتعلق منها بالدورتين الثالثة والرابعة وحتى الآن، انتفاء التوحد الشعبى لليهود، فضلاً عن عدم وحدة اللغة أوالعادات والتقاليد، والثقافة الشعبية التراثية، أو الرسمية، أو النخبوية، ولا يمكن فى حالٍ كهذه، الحديث عن وحدة ونقاء اللغة، أو

وحدة ونقاء العِرق، من هنا فإن العلاقة بين ملامح أيٍ من التجمعات اليهودية الحالية في العالم، وملامح الشعوب السامية، أبعد بكثير جداً، من العلاقة القائمة، بين أى تجمع يهودى منها، وشعب البلد الذى يقيم فيه، فيما عدا فلسطين، التى شهدت هجرات صهيونية استعمارية، لليهود، من شتى بقاع العالم إلى فلسطين، اعتباراً من أواخر القرن التاسع عشر، حين تأسست الحركة الصهيونية، وحتى الآن، لإقامة وطن قَسرى قومى مفتعلٍ ومُشَوَّه لليهود، على أرض العرب الفلسطينيين، وليقدم ذاك التجمع أوضح صورة، وأبلغ دليل حى، ومعاصر، على التباين والتنافر الإثنى والإنثربولوجى بين اليهود المعاصرين، وهو أبلغ دليل على عدم سامية اليهود الحاليين، واستحالة تجانسهم، كشعب أو قومية، فيما سبق أو فيما هُوَ آت. بل إن التجمعات البشرية اليهودية، المستجلبة إلى فلسطين، من شتى بقاع الأرض، يمكن اعتبارها متحفاً حياً لكل أنواع البشر، المتباينة إثنياً، والمختلفة إنثربولوجياً، لكن لا يمكن اعتبار تلك التجمعات، شعباً أو قوميةً، بحال، ناهيك عن اعتبار مؤسساتهم الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والعسكرية، والدينية، في مجموعها دولةً على نمط دول العالم المعاصرة، بأى شكل من الأشكال. إن التوصيف الوحيد الممكن، والجائز، والمنطقى، لهذه الحالة من التَكَاثُف البشرى القسرى، هو أنه كيان استعمارى مُشَوَّه، أقامته مجموعة من المرتزقة.

٩- (لما كان الأمر كذلك، فقد ذهب عدد من الباحثين العرب والمستشرقين، فى مجال العلوم الاجتماعية "الإثنية والأنثربولوجية"، والأثرية، إلى تخطئة التسمية[٢٠]، معتبرين أن انحدار الساميين من

صلب رجل واحد هو سام، مجرد أسطورة، لا سند لها من الواقع والمنطق، وإلى أن اعتماد مصطلح السامية، فى الأساس، للتعبير عن حضارات مجموعة الشعوب السابق ذكرها، يمكن أن يكون قد جانبه الصواب، ونتيجةً للتطور فى أوضاع اليهود الاجتماعية، والتطور التاريخى للمجتمعات بصفةٍ عامة، عبر القرون العشرة المنصرمة، وأنه وفى ضوء التقدم العلمى، والمكتشفات الأثرية المستجدة، خلال القرنين السابقين، عقب اعتماد "شلوستر"، ومن خَلَفَهُ من العلماء، ذلك المصطلح، تَكَّشَفَ عدم دقته، ومواءمته لطبيعة حال حضارات، ولغات تلك الشعوب، وعلاقاتها الإثنية، بل اقترح العديد من العلماء والباحثين، المعروفين بمصداقيتهم وحيادهم البحثى، مصطلحات بديلة، أكثر دقة فى التوصيف، والمصداقية العلمية، فقد اقترح عالم عراقى مرموق، عام ١٩٥٤، استبدال لفظ "عربى" بـ"سامى"[٢١]، دافعاً فى ذلك بأسانيد كثيرة، ولم يُقِر اقتراحه هذا عددٌ كبير من المعنيين بالدراسات اللغوية والحضارات القديمة، نظراً لتحفظاتٍ لها وجاهتها العلمية، حيث أن المصطلح المقترح، يواجه هو، أيضاً، مشكلاتٍ تاريخية، ولغوية، وثقافية، لكن المعارضين، ومع اعترافهم بخطأ مصطلح "السامية"، لم يقدموا حلاً للمشكلة، باقتراح مصطلحٍ بديل. وفى عام ١٩٦٨ تراجع هذا العالم العراقى، عن رأيه، وأوضح تفصيلاً أسباب تراجعه هذا، ولكنه لم يقدم هذه المرة مصطلحاً بديلاً[٢٢]. وقد اتفق أحد أهم الباحثين الأكاديميين المصريين الأنثروبولوجيين، مع العديد من علماء الأنثربولوجى، على خطأ مصطلح السامية، وأطلق عوضاً عنه، فى بحثٍ له، بعنوان"الأكديون: دورهم فى المنطقة"، مصطلح "الشعوب الجَزَرِيَّة"، كمصطلحٍ يعبر عن

مجموعة الشعوب القديمة المتقدم ذكرها، منسوبةً إلى موطنها الأصلي، شبه الجزيرة العربية، الذي انطلقت منه، مرتحلةً شمالاً إلى بلاد الشام والرافدين، انطلاقاً من الجزيرة العربية(٢٣). وقد اتفق معه، في ذلك، علماءُ كثيرون، ممن لهم وزنهم، ومصداقيتهم العلمية، في هذا المجال(٢٤).

**الصهيونية والعداء للسامية:**

ظل مصطلح السامية قاصراً، في استخدامه، على الدوائر البحثية العلمية، على النحو المشار إليه عاليه، حتى انبعاث الأفكار الأولى للحركة الصهيونية، فبدأ توظيفه سياسياً، لخدمة تلك الحركة، ومنذ اللحظات الأولى لنشأتها.

العداء للسامية، أو "اللا سامية"، لو أُخِذَت العبارة بالمعنى الحرفي، فإنها تعني العداء للساميين، أو لأعضاء الجنس السامي، الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى، بينما يُشَكِك بعض الباحثين في انتماء اليهود الحاليين إليه(٢٥)، ولكن المصطلح في المفهوم الغربي، هو: العداء لليهود، باعتبارهم يهوداً(٢٦). فالخطاب الصهيوني الراسخ في المفهوم الأوروبي، يقرن الساميين باليهود، ويوحد بينهم، ولكن كيف نشأ هذا المفهوم؟ ومتى؟ وإلى أي درجة، تم توظيفه سياسياً؟ ومن وَظَّفَه؟ وكيف وَظَّفَه؟ هذه الأسئلة هي ما سنحاول أن نجد لها إجاباتٍ.

كان الصحفي الألماني اليهودي الأصل ولهلم مار (١٨١٨ ـ ١٩٠٤) أول من استخدم هذا المصطلح، عام ١٨٧٩، في كتابه "انتصار اليهودية على الألمانية ـ من منظور غير ديني". وقد صدر الكتاب بعد المضاربات التي أعقبت الحرب الفرنسية – البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١)، والتي أدَّت

إلى دمار كثير من المموِّلين الألمان، الذين ألقوا باللوم على اليهود(٢٧) وحلت فى كتاب "مار" كلمتا «سامى» و«سامية»، محل «يهودى» و«يهودية». وهو الذى أشاع مصطلح «Anti-Semitism»، أى (معاداة السامية)، فى اللغات الأوربية، وبيَّن فى دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة، كما أسس جماعة ضمت أعداء اليهود عام ١٨٧٩ . والعبارة بالمعنى الحرفى، تعنى العداء للساميين، أو لأعضاء الجنس السامى الذى يشكل العرب أغلبيته العظمى، بينما يُشكك بعض الباحثين فى انتماء اليهود إليه. لكن المصطلح، فى اللغات الأوربية، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم، وهذا يعود إلى جهل الباحثين الأوربيين، فى القرن التاسع عشر، بالحضارات الشرقية، وعدم اكتمال معرفتهم بالتشكيل الحضارى السامى، أو بتنوع الانتماءات العرْقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية(٢٨). ولم يكن للمصطلح، آن ذاك، أية انعكاسات، أو تداعيات سياسية. إلا أن المجتمعات الأوروبية واجهت التجمعات اليهودية فيها، خاصةً فى القرون الثلاثة الماضية، بموجات متعددة من العداء والاضطهاد، وصلت فى الكثير منها إلى مستوى المجازر وحمامات الدم، وكان وراء تلك الموجات، أسباب شتى، تفاوتت فيما بينها فى التفاصيل، وإن اشتركت فيما بينها فى سماتٍ عِدَّة، لعل من أهمها أنها واكبت بدايات التشكل والصعود القومى للشعوب الأوروبية، بوصفها قوميات، كما واكبت صعود النظم الرأسمالية فى بلدان أوروبا، بما تضمنته من أزمات دورية تعانى منها المجتمعات الإنسانية فى المرحلة الرأسمالية، علاوةً على التفاوت التاريخى، فى التطور الاقتصادى بين أوروبا الغربية والشرقية، وانعكاسات ذلك على

العلاقة بين الشعوب الأوروبية والتجمعات اليهودية المقيمة فيها، سلباً أو إيجاباً[٢٩]. فقد نشأ التيار العنصرى "القومى" اليهودى، فى سياق بزوغ ظاهرتى الدولة القومية، وتطور الرأسمالية إلى الإمبريالية فى أوروبا، بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، حين دخلت الرأسماليات الأوروبية فى صراعها المحموم، بكل صوره، على المستعمرات، لفتح أسواق جديدة، حيث نشأ هذا التيار كرد فعل لفقدان الأمان والثقة فى المجتمع الأوروبى، ولكنه، فى الوقت نفسه، كان انعكاساً له بكل ملامحه، ومحاكياً له فى أهدافه وتوجهاته[٣٠]. ويعدد أكاديمى عربى مصرى متخصص فى الشئون الصهيونية، أسباباً أخرى كثيرة، وعلى درجة كبيرة من الأهمية، لفهم الأسباب الكامنة وراء موجات العداء لليهود، التى اجتاحت أوروبا، خلال تلك الفترات، كما قدم، الأكاديمى نفسه، عرضاً تفصيليا لتطور وصعود وملابسات حوادث العداء لليهود فى أوروبا، وتحوله من مجرد مشاعر إنسانية بكراهية اليهود، إلى حركات سياسيةٍ[٣١]. ولا شك فى أن تاريخ العداء لليهود فى أوروبا، كان دافعاً أساسياً ولَّد إحساساً بالظلم لدى اليهود الأوروبيين، دفعهم للبحث عن خلاصهم من ذلك الاضطهاد. فالعداء للسامية، مثل غيره من المظاهر العنصرية، ينبث باستخدام وقائع أو أحداث تاريخية حقيقية، أو ملفقة، تسبب ألما لجماعة ما من الناس، وتدفعهم للاشتباه فى أن وراء هذا الألم فاعلا سببها عمداً[٣٢].

إلا أن حادثة دريفوس كانت أكثر ما أثر فى نفس الصحفى النمساوى اليهودى "تيودور هرتزل"[٣٣]، لقد كانت معاداة اليهود فى فرنسا سلاحاً مهماً فى يد بعض العناصر الملكية والكنسية، المعادية

للثورة الفرنسية ومُثُلها. فشهد عام ١٨٩٤ "حادثة دريفوس"، أحد ضباط الأركان العامة للجيش الفرنسى، والذى أُتهم بأنه خان بلاده، وسلم بعض المعلومات المتعلقة بأمنها إلى ألمانيا. وقد دافعت عنه القوى التقدمية والليبرالية، فى حين وقفت القوى المحافظة والمعادية لليهود ضده، واستمرت القضية بكل تفاعلاتها، القانونية والسياسية والصحفية والجماهيرية، منذ تاريخ تفجرها، وحتى عام ١٩٠٣، حين ثبتت براءة درايفوس، وتم رد الاعتبار إليه، ثم اعتزل الحياة العامة تماماً بعد ذلك، وعاش فى منزله بقية حياته، غير مدرك للدلالات التاريخية والسياسية للواقعة، التى ارتبطت باسمه(٣٤).

إلا أن هذه الحادثة تركت بصماتها غائرةً فى نفس تيودور هرتزل، فمن خلال عمله قام بالتغطية الصحفية لقضية درايفوس بكافة تفاعلاتها، وكان هرتزل مقتنعاً، فى بادئ الأمر، بأن درايفوس مذنب وخائن، إلا أنه، ومع تطور أحداث القضية، تغير موقفه لصالح درايفوس، بالإضافة إلى تحول ميوله القومية بخصوص قضية اضطهاد اليهود فى أوروبا، إلى وعى بضرورة إيجاد حل سياسى قومى لها، اختمرت فكرة الدولة اليهودية فى عقله، على الرغم من عدم اعتناقه اليهودية بشكل عقائدى، وجهله التام باللغة العبرية، لقد ظهر هرتزل بين صفوف يهود الغرب المندمجين "التوطينيين"، فاكتشف حاجة الغرب ويهود الغرب للتخلص من يهود شرق أوربا. كما اكتشف حتمية التحرك داخل إطار الإمبريالية الغربية التى يمكنها، وحدها، أن تنقل اليهود خارج أوربا، وأن توظفهم لصالحها، نظير أن تزودهم بالدعم والحماية. إضافةً إلى اكتشافه فكرة

القومية العضوية، والشعب العضوى، التى تستطيع أوروبا الإمبريالية أن تدرك اليهود من خلالها. ونجح هرتزل فى التوصُّل إلى خطاب مراوغ، وهو ما جعل وضع نصوص العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم ممكناً. وهو عقد يُرضى يهود الشرق، ولا يُفزع يهود الغرب، ويجعل بإمكان الإمبريالية أن تضع المشروع الصهيونى موضع التنفيذ. كما أنه فتح الباب أمام عملية تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية من خلال الديباجات اليهودية المختلفة. وتميز هرتزل عمَّن عداه، بأنه هو نفسه يهودى، ينظر إلى المادة البشرية المُستهدَفة من الداخل. ولكنه مع هذا يهودى غير يهودى، ولذا فهو ينظر إلى هذه المادة من الخارج، ويراها باعتبارها مشكلة تبغى حلاً، لا قيمة إنسانية تبغى التحقق. وبسبب ازدواجيته هذه، نجح هرتزل فى أن يكون جسراً بين التوطينيين والاستيطانيين، وبين اليهود والغرب(٣٥). فكتب كتابه الشهير، الذى أسس للحركة الصهيونية الحديثة، وهو كتاب " دولة اليهود: محاولة لحل عصرى للمسألة اليهودية"، والذى نشر موجزاً له فى "جويش كرونيكل"، فى ١٨٩٥، ثم نشر الكتاب نفسه، فى ١٤ فبراير/ شباط ١٨٩٦. انطلاقاً من قضية درايفوس، التى اعتبرها هرتزل تجسيداً للعداء للسامية، وعَمَّمَ هرتزل تلك الفكرة، "عداء الأغيار الأبدى ضد السامية"، لتكون مرتكزاً أساسياً للحركة التى باشر تأسيسها. وما لبثت الحركة الصهيونية فى مختلف مراحل تطورها، أن استخدمت تلك المقولة، بمناسبة أو بدون، محققةً بذلك العديد من أهدافها، فقامت بترسيخ فكرة أن العداء للسامية هى ملمح فطرى لدى

الأغيار، وأن مجتمعات الأغيار تنبذ اليهود بطبيعتها، وتأكيد عزلة اليهود، وتثبيت المفاهيم الصهيونية، عموماً بخصوص هذا الموضوع فى أذهان اليهود وغيرهم، ومن ثم إثبات صحة الفرضية الصهيونية بأنه لا يوجد سوى الحل الصهيونى، لهذه المسألة ألا وهو تجميع يهود العالم فى أى مستعمرةٍ،(فى أوغندا، أو طرابلس، أو قبرص، أو الأرجنتين، أو موزمبيق، أو الكونغو) (٣٦)، تمهيداً للزحف، والاستيلاء، والتوطن فى "أرض الميعاد"، طبقاً للأفكار والمساعى الدولية الأولى لهرتزل، أو باختصار ذلك، والهجرة مباشرةً إلى فلسطين، عقب صدور "وعد بلفور" فى ٢ نوفمبر/ تشرين الثانى١٩١٧.

طبقاً لمنطق هرتزل فإن "الأمة اليهودية" ستختفى باختفاء العداء للسامية، ولأن عداء الأغيار للسامية أبدى، فسيكتب الخلود لتلك الأمة بالضرورة. "إن الشعوب كافة، التى يعيش اليهود بينها، كلها مجتمعة، وكل منها على حدة، إنما هى معادية للسامية، بصراحةٍ أو بموارية"(٣٧). كما يقول ليو بينسكر، الروسى الصهيونى الاستيطانى الشهير، زعيم جماعة "أحباء صهيون"، وهو علمانى، لم يتعلم فى مدرسة يهودية، (كما هو الحال مع معظم المفكرين والزعماء الصهاينة)، مؤلف كراسة "الانعتاق الذاتى: تحذير من يهودى روسى لإخوته" (١٨٨٢)، الذى نُشر مُوجَّهاً، أساساً، إلى يهود الغرب: "إن العداء للسامية مرض نفسى مستعصٍ، لا سبيل إلى الشفاء منه، فاليهودافوبيا (كراهية اليهود)، مرض عصبى وراثى ينتقل من جيل إلى آخر، على امتداد آلاف السنين، ومن هنا فلا علاج له، وعلى كل حال فلا يوجد شعب من الشعوب يشعر بالارتياح إلى الأجانب، تلك ظاهرة ترجع إلى أسباب

عرقية، لا يمكن أن يلام عليها أحد"[٣٨]. كما يردد حاييم وايزمان، أحد أهم الآباء الروحيين للكيان الصهيوني: "العداء للسامية هو ميكروب يحمله كل إنسان في داخله، أينما كان، وبغض النظر عن أي تأكيد بعكس ذلك"[٣٩]. ويؤكد كاتب سياسي مصري هذا المفهوم قائلاً: "العقيدة العنصرية للصهيونية المتطرفة في الولايات المتحدة واسرائيل–، تنهض علي افتراض أن العداء للسامية يقترب من معنى الغريزة، أو الدافع الموروث عضويا في غير اليهود–، هذا هو جوهر المنطلقات الأيديولوجية للصهيونية–، فوفقا لهذه الأيديولوجيا لا توجد طريقة لتحرر اليهود سوى الانفصال عن الأغيار، وبناء دولة يهودية في فلسطين"[٤٠].

### الصهيونية توظف المقولة

منذ حادثة درايفوس، اتخذت الحركة الصهيونية من شعار "عداء الأغيار الأبدي ضد السامية"، شعاراً ومرتكزاً لها، ولم تترك فرصةً إلا واستغلتها، بل إنها عمدت، أحياناً، لاختلاق تلك الفرص، لتأكيد هذا المفهوم ولنستعرض بعض الأمثلة على ذلك:

### ١– محاكمة إيخمان

أدولف أتو إيخمان (١٩٠٦ ـ ١٩٦٢) مسئول نازي وضابط في "فرق العاصفة" النازية، ومن أهم الشخصيات في عملية الإبادة النازية ليهود أوروبا. درس اليديشية، والعبرية، والعقيدة اليهودية، فأصبح حجة في مسألة التنظيمات الصهيونية والهجرة اليهودية، عام ١٩٣٨، وأرسله النازي إلى النمسا ليساعد في عملية تهجير أعضاء الجماعة اليهودية. عُيِّن مديراً لمركز الرايخ للهجرة اليهودية، ١٩٣٩، ثم عُيِّن

رئيساً لقسم الشئون اليهودية فى "الجستابو"، وقام بالإشراف على عملية نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال.

قُبض على إيخمان، بعد الحرب، ولكن لم تُكتشف هويته الحقيقية، ففر إلى الأرجنتين، عام ١٩٤٥، واختبأ فيها، ثم عثر عليه عملاء المخابرات الإسرائيلية، عام ١٩٦٠. أسهم فى عملية اكتشاف شخصيتة فى الأرجنتين المدعى العام لألمانيا الغربية، نظراً للابتزاز السياسى الذى مارسته إسرائيل على ألمانيا، آنذاك، أوفدت إسرائيل رجال مخابراتها إلى بيونس أيريس، وتحققت من شخصيته، فتم اختطافه، ونقله مخدَّراً متخفياً فى زى مضيف جوى بطائرة إسرائيلية، كانت فى الأرجنتين، بحجة نقل وفد إسرائيلى للاشتراك فى احتفال الأرجنتين بالذكرى المائة والخمسين لاستقلالها.

بدأت محاكمة إيخمان فى ١١ أبريل/ نيسان ١٩٦١، بالقدس المحتلة، حيث وجه إليه المدعى العام الإسرائيلى تهمة المشاركة فى إبادة يهود أوروبا، وبالطبع العداء للسامية.

لم يُنكر إيخمان أو محاميه أياً من الاتهامات الموجهة إليه، بصفته موظفاً فى مؤسسة حديثة يقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه، كمجرد بيروقراطى منفذ للإجراءات، لا يسأل عن الأهداف، وبالتالى يجب أن يُحاكم على مدى كفاءته فى تنفيذ الأوامر وحسب. لكن المحكمة رفضت دفعه، وحكمت عليه بالإعدام.

استهدف رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك، ديفيد بن جوريون، بهذه المحاكمة زيادة الوعى اليهودى بين أعضاء التجمع الاستيطانى، وأعضاء

الجماعات اليهودية فى العالم، بتعميق الإحساس بأنهم الضحية الوحيدة، وأن "الأغيار" لا تأخذهم الرحمة باليهود. ففجّرت المحاكمة عدة قضايا لم يكن من أعدوا لها قد انتبهوا إليها:

١ - بيّن إيخمان أن رؤيته تشترك مع الرؤية الصهيونية فى ضرورة تهجير اليهود إلى أرض خاصة بهم، كما أشار إيخمان إلى أنه قرأ كتاب هرتزل "دولة اليهود"، وتأثر به كثيراً، ولا يختلف عن الزعماء النازيين الذين تأثروا بالفكر الصهيونى.

٢ - أشار إيخمان إلى التعاون بين السلطات النازية والصهاينة، وأوضح أنه كانت هناك صفقة هُجِّر بموجبها بضعة آلاف من اليهود إلى المُستَوطَن الصهيونى. كما أُرسلت البضائع إلى هناك، نظير أن تضمن القيادات الصهيونية هدوء اليهود المرحلين إلى معسكرات الاعتقال.

٣ - أثار سلوك الضحايا اليهود الكثير من الدهشة، حيث لاقوا حتفهم دون مقاومة.

٤ - أثناء تقديمه لعريضة الاتهام، بيّن المدعى العام الإسرائيلى أن "الشعب اليهودى" تعرض للاضطهاد والطرد والملاحقة، فى كل البلاد، عبر التاريخ. تلقف محامى الدفاع ذلك، متسائلاً: ما هى طبيعة هذا الشعب الذى يجد نفسه عُرضة للطرد والملاحقة، أينما كان؟ ألا يوجد احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من أذى، وأنه شعب مستفز، يضطر كل الشعوب، فى كل زمان ومكان، لطرده وملاحقته؟!.

أثارت المحاكمة قضايا مختلفة، مثل دور المجالس اليهودية، التى شكلها النازيون، وعينوا فيها يهوداً، كأداة تنفيذية فى يد النازى، ودور كثير من الحاخامات الذين لم يشاركوا فى تنظيم حركة المقاومة.

كانت المحاكمة محط اهتمام دولى، خصوصاً وأن الدولة الصهيونية انتهكت القانون الدولى وسيادة عدة دول (الأرجنتين، وألمانيا)، وأصبحت تعتبر ذلك الانتهاك حقاً مكتسباً، تحت ستار محاربة العداء للسامية، باختطاف إيخمان، الذى أُعدم شنقاً فى سجن الرملة، وأُحرقت جثته، ونُثِرَ رمادها فى البحر الأبيض المتوسط[٤١].

**٢- محاكمة ديمانجوك**

جون ديمانجوك أمريكى من أصل أوكرانى، اتُهم بارتكاب جرائم حرب، إبَّان الحرب العالمية الثانية، وبمعاداة السامية. واتهم بأنه قاتل فى صفوف الجيش السوفياتى، ووقع فى أسر الألمان، وتم تجنيده للعمل فى خدمة قوات الإس. إس. الألمانية فى معسكر تربلينكا، مشرفاً على غرف الغاز، وأُطلق عليه لقب «إيفان الرهيب»، وظل فى المعسكر، حتى إغلاقه، عام ١٩٤٣. وبعد الحرب، عاش ديمانجوك فى الولايات المتحدة حياةً هادئةً، إلى أن قامت السلطات الأمريكية بتجريده من جنسيته الأمريكية، وترحيله إلى إسرائيل، عام ١٩٨٦، حيث قُدِّم للمحاكمة، عام ١٩٨٧، ووُجِّهت إليه اتهامات بالقتل وارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وضد الشعب اليهودى. أكد الدفاع وجود لبسٍ فى شخصية المتهم، فهو ليس «إيفان الرهيب»، وشكك فى الأدلة المقدمة ضده، وبالطبع لم تلتفت المحكمة إلى الدفوع المقدمة، وأُدين ديمانجوك بالتهم السابقة، وحُكم عليه بالإعدام، عام ١٩٨٨ .

استثمرت المؤسسةُ الصهيونيةُ الحاكمةَ فى تحقيق أهدافٍ خاصة، كرفع ما يُسمَّى «الوعى اليهودى» بين الأجيال الجديدة من أعضاء الجماعات اليهودية. كما حاولت تذكير العالم (الغربى) بالجرم النازى ضد اليهود، وذلك فى محاولة للتغطية على ممارسات إسرائيل الإرهابية ضد الانتفاضة الفلسطينية المتفجرة آنذاك، إضافةً إلى تنشيط فكرة العداء ضد السامية. وقد اعترف، فيما بعد، بعض المسئولين الأمريكيين، بإخفاء أوراق تثبت أن ديمانجوك ليس إيفان الرهيب. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتى، وفتح الملفات السرية، ظهرت دلائل تثبت ذلك، أيضاً. طالبت "نيويورك تايمز" بالإفراج عنه، لعدم توافر الأدلة، ونبه باتريك بوكانان (من الحزب الجمهورى) إلى مماطلة إسرائيل فى تبرئة ديمانجوك، كى لا تضطر إسرائيل إلى الاعتراف بخطئها. ثم صدر حكمٌ ببراءة ديمانجوك من المحكمة الإسرائيلية العليا، عام ١٩٩٣، وانتهت المهزلة(٤٢).

### ٣- حادثة فالدهايم

أثناء حملته الانتخابية لرئاسة النمسا عام ١٩٨٦، أُثيرت ضد كورت فالدهايم قضية ما يُسمَّى "ماضيه النازى". وقد تزَّعم الحملة ضده المؤتمر اليهودى العالمى، الذى اتهم فالدهايم بالعداء للسامية وإخفاء ماضيه أثناء الحرب العالمية الثانية وبالكذب فى ادعائه عدم ارتباطه بالنازى، واستند المؤتمر اليهودى العالمى فى إدعائه هذا على ملف «أودلو كانمر» (أو القرار) اليوغسلافى الذى ضم قائمة بأسماء الأشخاص الذين اعتبرتهم السلطات اليوغسلافية متورطين فى ارتكاب جرائم الحرب وكان من بينها اسم فالدهايم، وأسند المؤتمر مهمة البحث فى ماضى

فالدهايم إلى عَالم فى التاريخ، انتهى بحثه إلى أن فالدهايم عمل ضابطاً للاستخبارات العسكرية للقوات المتمركزة غرب البوسنة والمسئولة عن ارتكاب المذابح ضد آلاف اليوغسلاف عام ١٩٤٢، وأن فالدهايم حصل على نوط الشجاعة من الحكومة الكرواتية الموالية لألمانيا فى هذه الفترة. وحث المؤتمر اليهودى العالمى الحكومة الأمريكية على وضع فالدهايم على قائمة غير المرغوب فى دخولهم إلى الولايات المتحدة. وأخذت بذلك الحكومة الأمريكية بالفعل فى أبريل/ نيسان ١٩٨٧. كما تركت هذه القضية آثارها على مكانته الدولية رغم نجاحه فى انتخابات الرئاسة النمساوية. ورغم نفيه مراراً الاتهامات المُوَجَّهَة إليه، وتأكيده أن ماضيه قد بُحث بشكلٍ وافٍ من قبَل الأجهزة الأمنية النمساوية، قبل توليه العمل فى السلك الدبلوماسى النمساوى، وأيضاً من قبَل أجهزة المخابرات الأمريكية (سى. آى. آيه)، والسوفياتية (كى. جى. بى)، والإسرائيلية (الموساد)، عند ترشيحه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة، ولم تجد أى منها ما يدينه.

لم يتم إثبات أىٍّ من الاتهامات الموجَّهة ضد فالدهايم، وتبيَّن، لاحقاً، أن ملف أودلو كانمر تحيط به الشكوك. وقامت ثلاث جهات نمساوية وبريطانية ودولية مستقلة ببحث هذه الاتهامات، ولم تجد ما يدين فالدهايم بأىٍّ من التهم الموجهة إليه، كانت هذه المحاولة ناجحة للنيل من سمعة فالدهايم، التى شهدت الأمم المتحدة، خلال فترة توليه منصب الأمين العام لها (١٩٧١ - ١٩٨٢)، دعوة ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ولأول مرة، لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكذلك صدور قرار يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية(٤٣).

## الصهيونية معادية للسامية

من الموضوعات التى لم يتم بحثها بالقدر الكافى، لأسباب معروفة، قضية تورُّط بعض أعضاء الجماعات اليهودية (من الصهاينة وغير الصهاينة) فى علاقة تعاون وثيقة مع النازيين. وقد أخذ هذا التعاون أشكالاً كثيرة، بعضها سلبى بعدم الاشتراك فى المقاومة، أو التعاون الاقتصادى والثقافى مع النازيين. وبعضها إيجابى، ومن أهمها التعاون المؤسَّسى بين المستوطنين الصهاينة والنظام النازى والنظام الفاشى الذى أخذ شكل "معاهدة الهعفراه"، تلك المعاهدة التى تبادل بموجبها المشروع الصهيونى المصالح مع الدولة النازية فى ألمانيا بصورة رسمية، فالأولى حصلت على إمداد بشرى ومالى لها فى فلسطين، بينما حصلت ألمانيا النازية، فى المقابل، على كسر طوق المقاطعة المتصاعد، جماهيرياً ودولياً، إضافة إلى التخلص من الفائض البشرى غير المرغوب فيه من اليهود الألمان، علاوة على إنعاش اقتصادها المختنق فى صفقة، دفع ثمنها مئات الآلاف من اليهود الألمان، ومئات الآلاف من الفلسطينيين الأبرياء، فيما بعد، وجنى العنصريون من الصهاينة والنازيين الفائدة، على النحو المفصل لاحقاً. لقد شاركت الحركة الصهيونية ألمانيا النازية، بموجب هذه المعاهدة فى أكبر صفقة تهجير قسرى لليهود، فى إحدى أكبر عمليات العداء للسامية فى القرن العشرين، ولم يتهم أحد الحركة الصهيونية بالعداء للسامية، بل دأبت الحركة على اتهام الآخرين بتلك التهمة.

فالكيان الإسرائيلى والحركة الصهيونية:عنصريان، معاديان للسامية، فهما يعاديان اليهود، لكونهم يهوداً، يقيمون خارج أرض فلسطين،

فتمارس الصهيونية وكيانها، عليهم الضغوط بشتى الطرق المباشرة، وغير المباشرة، لدفعهم إلى الهجرة إلى أرض فلسطين. ولنتذكر عدة حوادث اتسم بعضها بالدموية الشديدة، والإرهاب العنيف ضد اليهود أنفسهم، أدت كل منها، فى حينها إلى خدمة أهداف الحركة الصهيونية، ولنذكر على سبيل المثال مايلى:

– لقد كان اليهود فى العراق (١٣٠.٠٠٠ شخص فى ١٩٤٨)، طائفة متأصلة تماماً فى البلاد، وأعلن حاخام العراق الأكبر خدورى ساسون: "لقد تمتع اليهود والعرب بنفس الحقوق، والامتيازات منذ ألف سنة، ولم يعتبروا أنفسهم عناصر غريبة، أو منفصلة عن هذا البلد". ثم بدأت التصرفات الإرهابية الإسرائيلية، فى ١٩٥٠، فى بغداد، فمع إحجام اليهود العراقيين وترددهم فى تسجيل أنفسهم على قوائم الهجرة إلى إسرائيل، لم تتردد الأجهزة السرية الإسرائيلية، من أجل إقناعهم بأنهم فى خطر، فى إلقاء القنابل عليهم، وقتل الهجوم على معبد "شيم توف"، ثلاثة أشخاص وجرح العشرات، وهكذابدأ الخروج الجماعى المسمى "عملية على بابا"(٤٤).

-تزامن مع تصاعد الموقف السياسى المعادى لليهود فى مصر، والذى تبناه الإخوان المسلمين، وحزب مصرالفتاة(٤٥)، على خلفية النشاط الصهيونى المحموم فى فلسطين، حدوث عدة عمليات تخريبية، عنيفة ومشبوهة ضد بعض المصالح الاقتصادية والتجارية لليهود المصريين، فى القاهرة، خلال الفترة من ١٩٤٥ وحتى ١٩٤٨، وقد كان اليهود المصريون، حتى ذلك التاريخ، فى غالبيتهم يعارضون الاستجابة للدعاية الصهيونية، والهجرة لإسرائيل، بل شكلت قطاعات

منهم، جمعية يهودية مصرية معادية للصهيونية، تحت اسم "الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية"، قامت بنشاط كبير، وحظيت بشعبية واسعة، بين اليهود المصريين، بينما لم يحظ فرعاً المنظمة الصهيونية فى القاهرة والإسكندرية، بانتشار جماهيرى يذكر فى أوساط اليهود المصريين، آنذاك.الأمر الذى قد يكون حدا ببعض العملاء الصهاينة للدفع باتجاه تلك العمليات التخريبية، وقد استند مكتبا القاهرة والإسكندرية الصهيونيان لتلك الحوادث التخريبية فى تنمية الخوف بين اليهود المصريين، من استمرار الإقامة فى مصر، تحت دعوى تنامى العداء للسامية بين المصريين، وذلك لدفعهم للهجرة صوب فلسطين، وتدعيم الإستيطان الصهيونى فيها بشرياً، مما أسفر عن هجرة ٧١٤٥ يهودياً مصرياً، دفعة واحدة، عام ١٩٤٩، وزاد هذا الرقم صعوداً، فى السنوات التالية، حيث وصل إلى ما جملته (١٦٦٠٧)، يهود مصريين، هاجروا خلال الفترة من ١٩٤٩ وحتى ١٩٥١[٤٦].

- فى عام ١٩٤٠، ولإثارة السخط على الإنجليز، الذين كانوا قد قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر، وذلك، باستضافتهم فى جزيرة موريشيوس، فإن الباخرة التى كانت تقلهم، وهى ناقلة البضائع الفرنسية "باتريا"، وعند توقفها فى ميناء حيفا يوم ٢٥ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠، حيث تحايل الصهاينة على الإنجليز، محاولين إدخال تلك الشحنة البشرية، إلى فلسطين، بدلاً من ذهابها إلى موريشيوس، إلا أن سلطات الانتداب البريطانى، رفضت إخلاء الشحنة فى فلسطين، وأصرت على إرسالها إلى وجهتها المخططة سلفاً من الإنجليز، فلم يتردد الزعماء الصهاينة، من جماعة الهاجاناه، (وكان رئيسهم بن

جوريون)، فى تفجيرها، مما أدى إلى وفاة ٢٥٢ يهودياً، علاوة على أفراد طاقم الباخرة(٤٧).

-تفجير كنيس جربَه، فى تونس، ٢٠٠٣، والاشتباه فى ضلوع عملاءٍ صهاينة، مرتبطين "بالموساد"، فى الحادث، وقد حدث التفجير فى قرية تونسية، يعيش فيها أهلها العرب، من يهود ومسلمين، فى توافق وترابط وتناسق اجتماعى، أثار حنق الدوائر الصهيونية، خاصة والقوات الإسرائيلية تقيم المذابح اليومية لأبناء الشعب الفلسطينى" وسط تعاطف شعبى عالمى متفجر، آنذاك، مع الحقوق الفلسطينية، وضد الإرهاب الإسرائيلي". فعمدت إلى ترويع التونسيين اليهود بذلك التفجير، الذى ألح الإسرائيليون (فقد نصّبوا من أنفسهم متحدثين باسم كل يهود العالم من مواطنى الدول الأخرى فى تَبَجُح، وتداخل سَمِج فى شئونها)، إلى وقوف من أسمتهم بالمتطرفين المسلمين المعادين للسامية خلفه، فى محاولة لتأليب الرأى العام الأوروبى، على العرب من غير اليهود، مما يقلل من التعاطف الشعبى الأوروبى العارم، مع الحقوق الوطنية، والقومية للشعب العربى الفلسطينى، فى مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية اليومية المتكررة، وإثارة الاضطراب والقلاقل داخل مجتمع مسالم متوافق، من المسلمين واليهود العرب، يشكل تحدياً للمبدأ الذى تعمل الصهيونية على إرسائه دائماً، وهو: استحالة التعايش بين اليهود والأغيار، وأبدية عداء الأغيار للسامية.

– تفجيرات تركيا بجوار المعابد اليهودية، يوم ١٥ نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٣، وقد أسفرت عن مقتل أربعة وعشرين شخصاً، وإصابة أكثر من مائتين وخمسين آخرين، وقد حامت الشبهات، أيضاً، حول

أصابع العملاء الصهاينة "الموساد" فى تلك التفجيرات. ارتبطت تركيا مع إسرائيل بعلاقاتٍ اقتصادية وعسكرية متنامية، منذ عدة سنوات، ولهما بدرجةٍ ما، ونتيجةً لمنطلقاتٍ مختلفة أهداف مشتركة فيما يتعلق بالجار الأوسط لكليهما (سوريا)، خاصة بعد التقارب السورى – العراقى الحثيث، إبان السنوات الأخيرة من حكم صدام حسين، إضافة لطموح تركيا فى دخول السوق الأوروبية المشتركة، وهو ما دفع تركيا لذلك التقارب مع الكيان الصهيونى، إثباتاً لحسن النوايا تجاه التوجهات الاستعمارية للقوى الغربية وحليفتها إسرائيل فى الوطن العربى بشكل عام. ومع تصاعد الهجمة الأمريكية على العراق، وقبيل بدء الحرب، ساومت الحكومةُ التركية، الإدارةَ الأمريكية، على ضرورة وجود القوات التركية ضمن قوات التحالف الداخلة إلى العراق حال بدء الغزو، لضمان عدم انفلات أوضاع ما بعد سقوط صدام، فى المناطق العراقية ذات الأغلبية الكردية، الأمر الذى قد ينذر بقيام حكم ذاتى لأكراد العراق، مما يثير قلق تركيا، فيما يتعلق بإنعاش آمال أكراد تركيا، أيضاً، فى الحصول على حكم ذاتى، علاوة على الأطماع التاريخية التركية فى الموصل. ومع الرفض الأمريكى المستمر، لتواجد القوات التركية على الأراضى العراقية، حتى بعد سقوط الحكم البعثى فى العراق، وذلك بإيعاز إسرائيلى لأمريكا، أيضاً، فإسرائيل لا تضمن الصديق التركى الجديد، تماماً، خاصة مع الميول الإسلامية المخففة، للحكم التركى الحالى. ذلك الرفض الأمريكى، رغم تقديم تركيا تسهيلات عسكرية كبيرة للقوات الأمريكية قبيل الغزو وأثناءه، علاوة على المماطلة الأوروبية، فيما يتعلق بالاستجابة للمطلب التركى المُلح، لأسباب

اقتصادية، بالانضمام للسوق الأوروبية المشتركة. كل ذلك دفع تركيا إلى محاولة الضغط على المعسكر الغربى عموماً، فحدث التقارب التركى مع سوريا من جهة، ومع إيران من جهةٍ أخرى، الأمر الذى أحدث انزعاجاً شديداً لدى إسرائيل، من احتمالية تشكل محور تحالفى تركى – سورى – إيرانى، قد يمتد من خلال سوريا، للتكامل مع المحور المصرى – السعودى – الأردنى – السورى، ما يضعف المركز الإقليمى الضاغط، الذى غدت تشكله إسرائيل ما بعد أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ فى واشنطن، لهذا وذاك عبثت الأصابع الإسرائيلية فى العمق التركى بإستانبول، وأحدثت تلك التفجيرات بجوار المعابد اليهودية، وعلى الفور تعالت الأصوات والصيحات الإسرائيلية، باتهام الجماعات المتطرفة المعادية للسامية، المتنامية فى تركيا، فى ظل الحكم الإسلامى الملامح، المعتدل التوجه (جول ـ أردوغان)، وأثارت إسرائيل تلك الزوبعة على خلفية أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، التى باتت تثير الذعر فى العالم الغربى، حال ذكر كلمة "تطرف إسلامى".. هكذا وبكل بساطة، ضَحَّت إسرائيل بأمن اليهود فى معابدهم فى تركيا، لتحقيق مكسب سياسى تاكتيكى صغير، ثم تلصق العداء للسامية بالآخرين(الأغيار) أىٍّ من كانوا، بينما تشكل هى الخطر والتهديد والعداء الحقيقى ليهود الدول الأخرى، طالما لم ينزحوا إليها، عقاباً لهم وللضغط عليهم للنزوح إلى فلسطين، وتعزيز الكيان الصهيونى، بشرياً ومالياً، فقد أدت الانتفاضة الفلسطينية لنزوح أعداد تقدر بعشرات الآلاف من الإسرائيليين، إلى خارج فلسطين، ما فَتِئَت إسرائيل تسعى لتعويضهم، بأية طريقة خوفاً من تحقيق الانتفاضة لنصر خفى من العيار الثقيل، نصرٌ جوهرهُ الإخلال

بالتوازن الديموغرافى فى أرض فلسطين لصالح المواطنين الأصليين، متمثلاً فى تسارع الهجرة العكسية الصهيونية، خوفاً من تداعيات الانتفاضة.

– تدنيس مقابر اليهود والمسلمين فى فرنسا (٢٠٠٤)، لنفس الأسباب المتقدم ذكرها فيما يتعلق بانعكاسات الانتفاضة الفلسطينية على التوازن الديموغرافى للكيان الصهيونى، علاوة على الأزمة الوزارية داخل إسرائيل التى كان يمر بها شارون، ممثل أقصى اليمين واحتمالات حجب الثقة عنه داخل الكنيست، لصالح اليمين الدينى المتشدد، على خلفية خطة فك الارتباط الأحادى المطروحة، من جانب شارون فى قطاع غزة، وحاجة شارون لنصر سياسى سريع، لتخطى الأزمة، علاوةً على تصاعد التعاطف الشعبى والرسمى الفرنسى مع الشعب الفلسطينى، وحقوقه المشروعة فى مواجهة آلة البطش الصهيونى، ظهر على السطح، فجأة وبدون مناسبة، حديث فى الدوائر الصهيونية الفرنسية عن تدنيس شواهد قبور يهودية فى فرنسا، برسم الصليب النازى المعقوف عليها، ودلالات ذلك المعادية للسامية، وكثر الحديث عن صعود تيارات إسلامية متشددة معادية للسامية فى المجتمع الفرنسى، وترددت الاتهامات من تلك الدوائر، موجهةً للمجتمع الفرنسى عموماً، بميله نحو معاداة السامية، فى الآونة الأخيرة، وما تعاطفه مع الفلسطينيين إلا الدليل على ذلك، ولما لم يُلقِ أحدٌ بالاً لذلك، ظهرت رسومات لنجمة داود على شواهد قبور المسلمين فى مقبرة فى باريس، الأمر الذى يشتم منه إصرار بعض الدوائر على إشعال فتيل صدام ما، ولكن لم يحدث رد فعل على المستوى الجماهيرى، يثلج قلوب من عبث

بالمقابر، فتعالت أصوات من الحكومة الإسرائيلية هذه المرة، ومن شارون شخصياً، وبشكل مباشر بدعوة يهود فرنسا للهجرة إلى إسرائيل، مما أثار استياء الحكومة الفرنسية، التى احتجت رسمياً وعلنياً، على لسان رئيسها، على هذا التبجح من إسرائيل بالتدخل فى أمر داخلى يمس الشعب الفرنسى ووحدته الوطنية، واستمر التصعيد الصهيونى على اليهود الفرنسيين، لحثهم على الهجرة، فأرسلت إسرائيل العديد من الشخصيات الإسرائيلية، السياسية والدينية، من خارج السلطة أو من داخلها، وأسفرت الحملة، أخيراً، عن هجرة حوالى مئتين من يهود فرنسا إلى فلسطين، واستقبلهم شارون فى المطار، شخصياً، حيث قامت الحكومة بإعداد ما أسمته استقبالاً شعبياً لهم. هذه المرة، أيضاً، كان إشعال حادثة، وصفت بالعداء للسامية، مفتعلاً ومفضوحاً، بل موجهاً أساساً ضد استقرار اليهود خارج إسرائيل، وليست الدوائر الصهيونية والإسرائيلية ببعيدةٍ عن دائرة الشك بوصفها مدبر الحادث، لأهداف سياسية ومَصلَحِيَة إسرائيلية، صغيرة ومباشرة.

لقد دأبت الحركة الصهيونية والكيان الصهيونى على استخدام مصطلح "معاداة السامية" فى كل فرصة، وأحياناً باختلاق الفرص، على النحو السابق عرضه، من أجل تحفيز اليهود من خارج الحركة الصهيونية، وتصعيد حالة التوتر والتربص لديهم ضد "الأغيار"، مما قد يدفعهم للعمل ضدهم، تلقائياً، على أساس المفاهيم الصهيونية، ودون الارتباط المباشر بتلك الحركة، مما يسهم بالضرورة، فى تحقيق أهدافها.

لكل ما سبق، وما لم نسرده هاهنا، لضيق المساحة، وشيوع ذكره فى مصادر أخرى، فإن الصهيونية، بالفعل، هى مشروعُ معادٍ للسامية،

بالمعنى الضيق للمصطلح، المعنى المُعتَمَد لدى الحركة الصهيونية ذاتها، أي السامية كمعادل لليهود، فهي تعادى بدرجةٍ تصل إلى استخدام العنف المسلح أحياناً، اليهود القابعين خارج الحركة، المتعايشين مع شعوبهم، ولا يرغبون فى هجرها، والنزوح إلى فلسطين، مشاركين فى ذلك المشروع العدواني. أما عن عداء الحركة الصهيونية للسامية، بمعناها الأكثر شمولية وموضوعية علمية، فهو عداؤها للشعوب التى يمكن أن نطلق عليها "سامية"، بحق، فى الوقت الحالى، وهى الشعب العربى. فتأسيساً على التصنيف التوراتى، وعلى الأبحاث الأنثروبولوجية، واللغوية، والحقائق الإثنية، والمكتشفات التاريخية، أيضاً، فالعرب، بلا أدنى شك، هم الشعب الأقرب للتعريف بالمصطلح السامى، شعب يقيم على أرضه بدون انقطاع أو شتات، منذ آلاف السنين، يتمسك بأرضه حتى الممات، فالأرض لديه مرادف للحياة، ولا حياة بدونها، ومثالنا على ذلك جليٌ على أرض فلسطين ذاتها، فالشعب العربى، شعبٌ يتحدث، ويتثقف بلغة تنتمى لعائلة اللغات السامية، لم يداخلها التشوه أو الامتزاج بلغات أخرى، كما طرأ على العبرية، مثلاً، شعب يحتضن لغته بفخر واعتزاز وإصرار، لم يهجرها طوعاً، ولم يتنازل عنها كرهاً، فلم تفلح محاولات الفرنسيين فى الجزائر، مثلاً وعلى مدار ١٣٠ عاماً أن تنزع عنه لغته وثقافته، ولنعاين معاً ممارسات الحركة الصهيونية، المعادية للسامية، والواقعة على الشعب العربى (السامى) أخلاقياً وحضارياً :

– لعل سرقة الأرض الفلسطينية، بشجرها وزروعها وثمارها ودورها من أهلها الأصليين، بل سرقة الحلم بمستقبل آمن، ومنح ذلك كله،

لوافدين أغراب، من شتى أرجاء الأرض، إلى فلسطين التى لا يربطهم بها سوى وهم كاذب، وأساطير عقائدية، يشكون هم أنفسهم فى صدقها، لعل ذلك من أشد الممارسات العنصرية المعادية للسامية عنفاً.

– سرقة تراث الشعب العربى فى فلسطين، وسرقة تاريخه، وعاداته، وتقاليده الاجتماعية، وطرز ملابسه، وأنماطه السلوكية، وفنونه الشعبية، ونسبتها إلى هؤلاء الوافدين الأغراب، هو إحدى صور العداء للسامية.

– سرقة مصطلح السامية من الشعب الوحيد الذى يمكن نعته بالسامية، على أسس أنثروبولوجية، وإثنية علمية حقيقية، وليس على أساس أسطورى مشكوك فى مصداقيته ودقته، سرقة ذلك المصطلح من الشعب العربى " بمسلميه ومسيحييه ويهوده"، وإطلاقه على شذاذ الآفاق، من قطاعات منبوذة من شعوبها، فقدت القدرة الإنسانية والاجتماعية على التوافق، والذوبان، والتعايش مع شعوبها الأصلية، وهم يهود أوروبا الغربية، والشرقية، والأمريكتين، وجنوب ووسط أفريقيا، ووسط وشرق آسيا، وشتى اليهود من غير العرب، هو بالفعل، أحد أشكال العداء للسامية، فإسرائيل والحركة الصهيونية، تعاديان العرب الفلسطينيين، لكونهم عرباً، وتضطهدهم عنصرياً، لتدفعهم قسراً إلى هجرة بلادهم، لإحلال اليهود المهاجرين إليها تحت لواء الحركة الصهيونية، محل أصحاب البلاد الأصليين، وتمارس فى سبيل تحقيق ذلك كل الأساليب الممكنة.

لربما كان، وسيظل الجانب الثقافى والعلمى والتاريخى، يحتل جزءاً هاماً من ساحات صراع الشعوب المضطهدة ضد مضطهديهم، إلا أنه يشكل جانباً أساسياً فى الصراع العربى، ضد المشروع الصهيونى، ذلك

أن الصهيونية، تتخذ من ذلك البعد مرتكزاً أساسياً فى دعايتها السياسية والأيديولوجية، مما يحمل المثقفين الوطنيين الديموقراطيين، فى العالم العربى، مسئولية كبيرة للتصدى لهذا الجانب من الصراع بجدية، وحزم. ولعل على رأس قائمة الأولويات منه، مسألة المصطلح، وفى المقدمة مقولة السامية والعدء للسامية.

*** هوامش الفصل الثاني:**

(١) "وهذه مواليد بنى نوح سام وحام ويافث وولد لهم بنون بعد الطوفان.... وسام أبو كل بنى عابر، أخو يافث الكبير، ولد له أيضاً بنون. بنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام. وبنو آرام عوص وحول وجاثر وماش. وأرفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر. ولعابر ولد ابنان اسم الواحد فالج، لأن فى أيامه قسمت الأرض واسم أخيه يقطان. ويقطان ولد الموداد وشاف وحضرموت ويارح وهدورام وأوزال ودقلة وعوبال وأبيمايل وشبا وأوفير وحويلة ويوباب. جميع هؤلاء بنو يقطان. وكان مسكنهم من ميشا حينما تجئ نحو سفار جبل المشرق. هؤلاء بنوسام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم حسب أممهم" (سفر التكوين، الإصحاح العاشر، ٢١- ٣٢).

(٢) عبد الوهاب المسيرى، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، القاهرة، دار الشروق، المجلد الرابع، الجزء الأول، الباب الرابع، الساميون (الشعوب السامية)، ١٩٩٩، صـ٨٩.

(٣) آرثر كستلر.القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم، ترجمة/ أحمد نجيب هاشم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانى،١٩٩١، الفصل الأول صـ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه، صـ١٩٦.

(٥) د. فاضل عبد الواحد على، من سومر إلى التوراة، القاهرة، سينا

للنشر،١٩٩٦، ط٢، صـ٤٠.

(٦) سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية، ترجمة/ د. السيد يعقوب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة "الألف كتاب الثانى"، ١٩٩٧، هوامش المترجم صـ٢٠٨.

(٧) المصدر نفسه، صـ١٩.

(٨) المسيرى، المصدر نفسه، المجلد نفسه، الجزء نفسه، صـ٨٩.

(٩) للتوسع فى هذا الموضوع إنظر: المسيرى، مصدر سبق ذكره، صـ٨٩ وما بعدها، وكذلك د.على، المصدر نفسه، صـ٤١ـ وما بعدها.

(١٠) د. ليلى إبراهيم أبو المجد، هل اليهود الحاليين ساميين؟ وهل نحن معادون للسامية؟، مركزالدراسات الإستراتيجية، مختارات إسرائيلية، القاهرة، السنة الثامنة، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، العدد ٩٣،صـ١٢٣.

(١١) زئيف هرتزوج، التوراة.. لا إثباتات على الأرض، الحفريات أنهت أسطورة التوراة، هاآرتس، ١٩٩٩/١٠/٣٠. انظر الترجمة العربية للمقال فى العصور الجديدة، القاهرة، العدد الثامن، السنة الأولى، إبريل/ نيسان٢٠٠٠، صـ٢٣٩ـ ٢٤٨، مع تعليق على المقال بقلم فيصل الخيرى صـ٢٣٢– ٢٣٩.

(١٢) د. لطفى عبد الوهاب، العرب فى العصور القديمة، صـ٤٤.

(١٣) لمزيد من التفصيل حول نفى إدعاء النقاء العرقى لليهود، يمكن الرجوع إلى د. أبو المجد، مصدر سبق ذكره، صـ١٢٣،١٢٤.

(١٤) المصدر نفسه، صـ٤٥.

(١٥) د. فاضل عبد الواحد على، المصدر نفسه، صـ٤٢.

(١٦) د. فاضل عبد الواحد على، المصدر نفسه، صـ٤٢.

(١٧) سفر التكوين، الإصحاح العاشر، ١٥.

(١٨) عبد الوهاب، مصدر سابق، صـ ٨٤.

(١٩) أبو المجد، مصدر سابق.

(٢٠) د. فاضل عبد الواحد على، مصدر سابق، صـ٤٣.

(٢١) د. جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثانى،(١٩٦٨)، صـ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢٢) د. جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، صـ٧.

(٢٣) د. فاضل عبد الواحد على، الأكديون: دورهم فى المنطقة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد٢٤، عام ١٩٧٩.

(٢٤) د. فاضل عبد الواحد على، مصدر سابق، صـ٤٧،٤٦.

(٢٥) أحمد عبد الرحيم (محرراً)، حرب المصطلحات، القاهرة، إتحاد الصحفيين العرب، ٢٠٠٢، ط٢، صـ٧٤.

(٢٦) د. محمد السيد سعيد، العنصرية المعكوسة .. قانون معاداة السامية، الأهرام، (القاهرة)، ٢٥/١٠/٢٠٠٤.

(٢٧) المسيرى. مصدر سابق، المجلد الثانى، الجزء الرابع، الباب الأول،(٢) معاداة اليهود : المصطلح،١٩٩٩، صـ٣٣٣.

(٢٨) المسيرى، المصدر نفسه، المجلد الثانى، الجزء الرابع، الباب الأول" إشكالية معاداة اليهود"، كلاسيكيات العداء لليهود منذ القرن الثامن عشر(١٠)، صـ٣٥٢.

(٢٩) القضية الفلسطينية (رؤية ثورية)، القاهرة، مركزالدراسات والبحوث الإشتراكية، يناير/ كانون ثانى ٢٠٠٢، صـ٦.

(٣٠) فيل مارشال،الانتفاضة: الصهيونية والإمبريالية والمقاومة الفلسطينية، لندن، بوكماركس، ١٩٨٩، صـ٣٠.

(٣١) المسيرى، مصدر سابق، المجلد الثاني، الجزء الرابع، الباب الأول" إشكالية معاداة اليهود" (٩)، صـ٣٤٩ - ٣٥٣.

(٣٢) سعيد، مصدر سابق.

(٣٣) تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤): ـ مؤسس الحركة السياسية الصهونية، الحاصل على دكتوراه فى القانون الرومانى عام ١٨٨٤من جامعة فيينا، لكنه عَمِلَ مراسلاً صحفياً، من باريس، لجريدة "نويا فرايا براسا" أوسع الصحف النمساوية انتشاراً، ثم رئيساً لتحرير القسم الأدبى فى الصحيفة اعتباراً من ١٨٩٥، وحتى وفاته.

(٣٤) للاستزادة عن تفاصيل حادثة درايفوس، المسيرى، مصدر سابق، المجلد الثاني، الجزء الرابع، الباب الثانى "حادثة دريفوس"، صـ٣٦٧- ٣٦٨.

(٣٥) المسيرى، مصدر سبق ذكره، المجلد السادس، *الجزء الثانى، الباب الأول* "تاريخ الصهيونية " (٣)، صـ٩٤- ٩٥.

(٣٦) رجاء جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، القاهرة، دار الغد العربى، ط١، ١٩٩٦، صـ١٨. نقلاً عن: تيودور هرتزل، اليوميات، طبعة فيكتور جولانسن، ١٩٥٨.

(٣٧) يورى إيفانوف، الصهيونية حذار، ترجمة: ماهر عسل، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر (دار الكتاب العربى)، ١٩٦٩، صـ٥٥. نقلاً عن: تيودور هرتزل، الدولة اليهودية، صـ٢٢.

(٣٨) إيفانوف، مصدر سابق، صـ٥٥. نقلاً عن: ليو بينسكر، الاستقلال الذاتى، صـ ١٢،١٣.

(٣٩) إيفانوف، مصدر سابق، صـ٥٥.

(٤٠) سعيد، مصدر سابق.

(٤١) المسيرى، مصدر سابق، المجلد الثانى، الجزء الرابع، الباب الخامس " بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوروبا "، محاكمة أيخمان، (١١)، صـ٤٥٠.

(٤٢) المصدر نفسه، المجلد نفسه، الجزء نفسه، الباب نفسه " بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوروبا "، محاكمة ديمانجوك، (١٤)، صـ٤٥٢.

(٤٣) المصدر نفسه، المجلد نفسه، الجزء نفسه، الباب نفسه " بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوروبا "، محاكمة فالدهايم، (١٣)، صـ٤٥٢.

(٤٤) جارودى، مصدر سابق، صـ ٨٦. نقلاً عن:- يديعوت أحرونوت، ٨ نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٧٧.

(٤٥) د. سعيدة محمد حسنى، اليهود فى مصر (١٨٨٢ - ١٩٤٨)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، من صـ٢٠٢ـ إلى صـ٢٠٨.

(٤٦) د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد، اليهود فى مصر بين قيام إسرائيل والعدوان الثلاثى ١٩٤٨-١٩٥٦، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر،١٩٩١، من صـ٤٩ـ إلى صـ٥٢.

(٤٧) جارودى، مصدر سابق، صـ٨٥. نقلاً عن:-

- د. هرتزل روزيلوم، نيويورك، وجويش نيوزلتر، نوفمبر/ تشرين ثانى ١٩٥٨.

- يهودا باور، يهود للبيع، باريس، ١٩٩٦، صـ٨٤.


الفصل
الثالث

# حيثيات ظهور الصهيونية

3

زينب حسن

في البدء جاءت الامبريالية، فتآزر المرابي والسمسار والمصرفي والموسراليهود، واتشحوا بالدين، قبل أن يستقووا بالبارجة البريطانية، تلك كانت الصورة التي مهدت لنشوء الصهيونية، كحركة سياسية، تولدت من رحم الامبريالية. فما آلية ظهور هذه الحركة، وتمأسسها؟ وهل كانت الصهيونية جزءا عضويا من الامبريالية العالمية؟ أم أنها استطاعت أن تكوِّن لنفسها أطرا مختلفة، فيما يتعلق بمفاهيم السيطرة، والقيادة، والقوة، على النحو الذي يعرفه عالم اليوم؟

ما أحوجنا فى ظل الظروف الراهنة، لإعادة النظر فى بعض المرتكزات التى اعتمدت عليها الصهيونية فى بناء كيانها المؤسسى، عبر عدة تنظيمات، إلى أن نجحت فى تأسيس الدولة الصهيونية، لكنها لم تسر على نمط واحد، بل وضعت بوصلتها السياسية فى اتجاه أى موطن قوة، يخدم أهدافها. والتحليل الموضوعى للأحداث، يقتضى النظر إلى التجربة فى سياقها التاريخى، محاطا بظروفه الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وهو ما يمكن أن يعين على فهم تلك الحركة.

## الجذور التاريخية للصهيونية

يشكل اليهود، تاريخيا، مجموعات اجتماعية، استطاعت ان تتفاعل مع الظروف المحيطة بها، فى كل رقعة استوطنتها تلك المجموعة، ليكون لها

دورها الاقتصادى المميز فيما حولها من أحداث، ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تم تطبيق هذا التوجه، حين اعتمد مؤسسو الصهيونيةعلى التغيرات والتحولات الدولية، ليبدأوا فى تعبئة اليهود من كل بلاد العالم، استنادا إلى تعاليم "التلمود"، التى تنادى بالعودة إلى "أرض الميعاد"، بينما قبل ذلك لم تذكر تلك الأفكار، بل أكثر من ذلك، لم تشكل أيا من توجهات اليهود، على الإطلاق.

قبل الشروع فى إظهار الكيفية التى قامت بها الحركة الصهيونية، لابد من إلقاء الضوء على أوضاع الطوائف اليهودية فى أوروبا، حيث كانت تعيش تحت وطأة الاضطهاد والانعزال، نتيجة لعدة أسباب، تراكمت عبر فترات زمنية تاريخية متباينة، ومن هذه الأسباب، حملات التطهير التى

قامت بها الأقطار الأوروبية ضد اليهود، عقب تهاوى الامبراطوريتين اليونانية والرومانية، حيث كان اليهود يعملون بالتجارة، وأقرضوا الأباطرة أموالا ضخمة، فكان على الآخرين التخلص من اليهود الدائنين، مع تصدع المجتمع العبودى.

مع نضج الرأسمالية فى ألمانيا وبريطانيا، فى القرن السادس عشر، قامت حركة الإصلاح فى وجه الكنيسة الكاثوليكية، وأدخلت تلك الحركة إلى الكنيسة البروتستانتية جميع المفاهيم التوراتية، وغدا "الكتاب المقدس" جزأين، وبدأت هذه المفاهيم تظهر فى الثقافة والأدب الغربيين، باعتبار أن المسيحيين هم "أبناء الله"، وأن اليهود "قتلة المسيح وأعداء دينه"[1].

كان اليهود فى أوروبا يشتغلون بالتجارة، والأعمال المالية، وقلما اشتغلوا بالزراعة، بل اقتصر نشاطهم على الأعمال المرتبطة بالزراعة، وهو سبب رئيسى فى كراهية اليهود، فلم يكن مبعث العداء ضد التجار اليهود، فى العصور الوسطى، من وحى مسيحى، بل له منبع وثنى حقيقى، له جذور أيديولوجية، تزدرى، بحكم تقليد فلاحى عميق، جميع أشكال النشاط الاقتصادى غير المرتبطة بالزراعة.

نتيجة هذه العوامل، عاشت الطوائف اليهودية فى انعزالية، أخذت أشكالا متعددة، كان من أبرزها[2]: "الجيتو"، و"الشتتل"، و"القهال"، وكلها تعنى، بالعبرية، الانفصال. من هنا عرفت أوروبا ما يسمى بـ"المسألة اليهودية"، وهى الإشكالية التى اعتمد عليها مؤسسو الصهيونية فى الترويج لأفكارهم، ويرجع ذلك إلى طبيعة الوجود الانعزالى التى عاشها اليهود فى أوروبا، مرة نتيجة الاضطهاد، ومرة أخرى باختيار

اليهود أنفسهم، فالتاريخ يذكر لهم مواقف عديدة، عكست حرصهم على العيش بعيدا عن غيرهم من الطوائف، بعيدين عن الامتزاج بأحوال البلاد التى يعيشون فيها.

ما أشبه اليوم بالبارحة، حيث يبدو أن حياة "الجيتوات" ألقت بظلالها على شخصية اليهودى الذى نزح إلى فلسطين، فليس غريبا أن يتطلع الصهاينة إلى إقامة "جيتو" كبير، يحشرون فيه جمهرة اليهود، وهذه المرة يتمثل فى إقامة سور حول قطاع غزة والضفة الغربية، لعزلهما عن الوطن العربى.

أثر وضع اليهود الاجتماعى "الانعزالى"، تأثيرا عميقا على طابعهم "القومى". وإذا لم يكن هناك من تناقض فى مفهوم الشعب- الطبقة، فمن الأسهل قبول التشابك بين الطبقة والدين. فكلما توصلت طبقة ما إلى مرحلة معينة من النضج والوعى، تتلبس معارضتها للمجموعة المسيطرة، أشكالا دينية(٣). وهذا ما يفسر نشأة الصهيونية على أساس المزج بين الدين والسياسة، واعتمادها على إثارة المشاعر الدينية لدى جمهرة اليهود من الطبقات الدنيا والمتوسطة، تحت شعار القومية المخلِّصة لهم من وطأة الاضطهاد والانعزال.

نتيجة التطور المتفاوت بين أقطار أوروبا، وبعضها البعض، كان من الطبيعى أن تتفاوت، أيضا، عملية انعتاق اليهود، واندماجهم، ولذلك تخلف انعتاق يهود الولايات الألمانية عن انعتاق يهود فرنسا، واتخذت عملية انعتاق اليهود فى روسيا القيصرية طابعا معقدا. وعند هذا الحد لابد من التوقف عند مسألة يهود روسيا، فبينهم ظهرت بذور الفكرة الصهيونية. فقد زعمت الحركة الصهيونية، حين قامت فى الغرب، أنها

قامت، فى الدرجة الأولى، لإنقاذ اليهود. ولهذا حين بدأت الصهيونية نشاطها فى روسيا القيصرية، بدأته فى ظروف يقظة الوعى بين جماهير البروليتاريا اليهودية، التى انخرطت فى العملية الثورية الروسية، وحاولت الصهيونية إبعاد تلك البروليتاريا عن هذه العملية الثورية(٤).

هنا تجلى دور اليهود فى ظهور الرأسمالية، حيث تلخص إسهامهم فى كونهم أقلية اقتصادية مهاجرة، حملت أفكارا تجارية، وجسدت قيما دينامية، تتنافى مع ستاتيكية (ثبات) المجتمع الإقطاعى المسيحى. إلا أن الأقليات اليهودية، مع هذا، ظلت هى ذلك الجزء من الكل الأوروبى الأكبر، الذى كان يتحرك بخطى حثيثة نحو التنظيم الرأسمالى للمجتمع، نتيجة لتغيرات بنيوية عميقة، لم يكن اليهود مسؤولين عنها، بل راحوا ضحيتها، فى نهاية الأمر، سواء حين طردوا من إنجلترا، فى القرن الثالث عشر، أو حين أبيدت أعداد كبيرة منهم فى ألمانيا النازية، فى القرن العشرين(٥).

بعد ظهور الحركات الثورية فى أوروبا، ومن أهمها الثورة الفرنسية التى تمخضت عن حقوق شتى لليهود، وكانت السبب فى انحسار انعزالهم عن المجتمعات التى عاشوا فيها، ظهر فريق من اليهود ينادى بالاندماج فى هذه المجتمعات، وتذويب الفوارق التاريخية، التى كرستها "الجيتوات"، وهذا ما جعل التجاوب ضعيفا لنداء بونابرت، عام ١٧٩٩، عند حصاره لعكا، إلى اليهود للقتال معه، من أجل تأسيس مملكة القدس القديمة، وتسليمها لليهود.

على أن انتكاس الثورة البرجوازية الفرنسية (اندلعت عام ١٧٨٩)، وشعاراتها التحررية (١٨١٥)، لحساب الإقطاع، وشعاراته الرجعية، أعطى دفعة قوية لتيار الانغلاق فى أوساط اليهود الأوروبيين، حين دخلت

الرأسمالية الأوروبية مرحلة الاحتكار والامبريالية، فتهيأت حاضنة من جهة، وتطلبت هذه الحاضنة، من جهة أخرى، امتدادا لها فى الوطن العربى، يشقه نصفين، ويعزل ضفته الأسيوية عن ضفته الأفريقية، ويحول دون وحدة هذا الوطن، ويحمى المصالح الامبريالية الأوروبية فيه، كما يحرس طرق مواصلات هذه الدول مع مستعمراتها فى الشرق الأقصى(٦).

## محاولات احتلال فلسطين

سبق نداء بونابرت لعودة اليهود إلى فلسطين محاولات أخرى، لم يكن منبعها الأوساط اليهودية، بل نادت بها الدول الكبرى، وخاصة بريطانيا، وساعد على ذلك الصراع التاريخى بين بريطانيا وفرنسا، وكانت محاولة بونابرت للسيطرة على تلك المنطقة الاستراتيجية، كممر تجارى هام، السبب وراء سعى بريطانيا السبق للتحكم فى هذه المنطقة.

غير أن المحاولات البريطانية سبقت الثورة الفرنسية فى ذلك، ففى مطلع القرن السابع عشر، روجت بريطانيا لفكرة عودة اليهود إلى فلسطين، على أساس النبوءة التوراتية، وكانت الحركة "البيوريتانية"، التى بدأت تتقوى وتسود، آنذاك، فى بريطانيا، من أنشط الحركات فى مجال الدعوة "لعودة اليهود إلى فلسطين". وأخذت هذه الحركة تغزو العالم البروتستانتى، فامتدت من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، ولاحقا ظهرت حركات بروتستانتينية أخرى، مثل "المورمون"، و"شهود يهوه"، و"الأدفنتست"، ونشطت كلها فى مجال خلق رأى عام، يقف إلى جانب فكرة "عودة اليهود إلى فلسطين"(٧).

عقب ذلك، وكإرهاص مبكر للحركة الصهيونية، وضع المحامى الانجليزى السير هنرى فينش رؤيته، حول تأسيس امبراطورية يهودية عالمية، مكانها فلسطين، وذلك عام ١٦٢١، حين صدر كتابه الشهير "العودة العالمية"(٨).

فى المقابل، وتحديدا عام ١٦٤٨، فى تركيا دعا شبتاى زيفى إلى عودة اليهود إلى "أرض الميعاد"، فآمن بدعوته الكثيرون فى أوروبا، حتى بعد اعتناقه الإسلام، فيما بعد.

فى عام ١٦٥٥، نجح كروموويل، ممثل البرجوازية التجارية فى بريطانيا، فى الصعود إلى سدة الحكم، وحينها اتخذ قراره بعودة اليهود إلى بريطانيا، بعد أن كانوا قد طردوا منها، فى عام ١٢٩٠، وكانت حجة كروموويل فى ذلك، تحقيق الحلم التوراتى بالعودة إلى "أرض الميعاد"، فى حين كان هدفه الخفى استخدام المسألة اليهودية فى صراعه ضد البرتغاليين، على مناطق النفوذ فى طرق التجارة الرئيسية فى العالم، ومن أهمها فلسطين.

بعد انفراد محمد على بحكم مصر، أرسلت بريطانيا "حملة فريزر"، عام ١٨٠٧، وكانت أشبه بفرقة استطلاع، أكثر منها حملة احتلال، بهدف اكتشاف التطورات الداخلية فى مصر، ولم ترد بريطانيا الزج بقواتها فى حرب غير محسوبة، حيث كانت قوات بونابرت تهدد مواقعها فى أكثر من بلد أوروبى.

فى العام نفسه عقد اليهود مؤتمرا، تمخض عن تشكيل مجلس أعلى لليهود المقيمين فى كل من فرنسا وإيطاليا، حمل اسم "السينهادرين".

قبل ذلك بسنوات، وفى عام ١٧٩٥، على وجه التحديد، ظهر كتاب الحاخام زفى كاليشر، الذى انتشر فى أوروبا، تحت عنوان "البحث عن صهيون"، حيث نادى بما يسمى "الجهد اليهودى"، المتمثل فى تعبئة التأييد العالمى لحشد أوسع دائرة ممكنة من اليهود فى العالم" للعودة إلى فلسطين". وطالب كاليشر أثرياء اليهود بتمويل ذلك، كحل للمسألة اليهودية فى أوروبا، فى وقت أصبحت فيه الأقطار الأوروبية مهيأة للفكرة التى نادى بها البعض من قبل، ولكن لم تتوافر الشروط المناسبة لتحقيقها، وهى العودة إلى "أرض الميعاد"، وكان ذلك التمهيد الحقيقى لنشأة الصهيونية.

أما ما عزز تهيئة أوروبا للأفكار الصهيونية فكانت حملة إبراهيم باشا على سوريا (١٨٣١- ١٨٤٠)، إذ تخوفت بريطانيا من قوة دولة محمد على، وتحسبت من سيطرته على المر التجارى الأهم فى حركة اقتصاد العالم عموما، وبريطانيا، على وجه الخصوص، ما جعلها تتعاون مع الامبراطورية العثمانية، بمشاركة روسيا، لدحر قوات مصر عن سوريا، وكان لهم ما أرادوا عام ١٨٤٠.

تجلت علاقة بريطانيا بالحركة الصهيونية، فيما كتبه وزير خارجيتها شافتسبرى بالمرستون، الذى أصبح ، فيما بعد، رئيسا للوزراء، فقد كتب فى ١٨٤٠/٩/٢، إلى السلطان العثمانى، فى شأن "المسألة السورية"، مشيرا إلى أن المنطقة تحتاج إلى المال والعمل، وأن العبرانيين يترقبون العودة إلى سوريا، مؤكدا أن نزوح العبرانيين إلى سوريا هو أرخص وأضمن أسلوب لتزويد هذه المناطق القليلة السكان بحاجاتها[٩]!

بعد ذلك تسارعت الأحداث، التى مهدت لنشوء الصهيونية، وتمكين

اليهود من فلسطين. ففى عام ١٨٣٩، تم فتح قنصلية بريطانية فى القدس، بدعوى متابعة موضوع اليهود هناك، وفى عام ١٨٤٤، تم إنشاء الجمعية البريطانية الأجنبية، للعمل على "إرجاع الأمة اليهودية إلى فلسطين". تلى ذلك توقيع اتفاقية بين بريطانيا وروسيا، فى عام ١٨٤٩، لتمكين اليهود الروس المقيمين فى القدس، من تسجيل أسمائهم فى القنصلية البريطانية، على أنهم خاضعون لحماية بريطانيا(١٠).

من بين الوقائع الهامة فى ذلك السياق، العرض الذى قدمه السير مونتفيورى، إلى محمد على، لإنشاء مصرف برأسمال مليون جنيه استرلينى، وشراء أراض فى فلسطين، ولكن محمد على رفض هذا العرض، إلا أن مونتفيورى، بعد خروج حملة إبراهيم باشا من الشام، تمكن من شراء أراض فى يافا، والقدس، وصفد، وكان ذلك عام ١٨٥٥(١١).

شكلت هذه الأحداث البداية الحقيقية لقيام الحركة الصهيونية، التى أصبحت الظروف مهيأة لها، خارجيا بالمساعدة البريطانية، وداخليا بالوجود اليهودى المتعاظم على أرض فلسطين.

### نشأة الصهيونية

مما لاشك فيه أن الإرهاصات السابقة، مهدت لنشوء الصهيونية، وإن لم تأخذ الشكل التنظيمى المحكم، وذلك لعدم توافر الشروط المناسبة. إلا أن القرن التاسع عشر، وما شهده من تحولات اقتصادية وسياسية، وفر المناخ المناسب لظهور الصهيونية، فقد كان أبرز سمات الربع الأخير من ذلك القرن، هو تحول الرأسمالية إلى أعلى مراحله: الامبريالية، واشتداد

الصراع بين الطبقات العاملة والرأسمالية، ذلك الصراع الذى ساعد على مولد الحركة الشيوعية العالمية، التى تبنت أيديولوجيتها، إقامة المجتمع العادل، وعدم استغلال الفئات الوسطى والكادحة.

لعل أول من استخدم كلمة"صهيونية" المفكر اليهودى الروسى ناثان بيرناوم، وعنى بها "الحركة الهادفة إلى تجميع الشعب اليهودى على أرض فلسطين"، واشتق الكلمة من "صهيون"، ذلك الجبل الموجود فى القدس، ويعتقد اليهود أن المسيح سيعود ليحكم العالم من فوق هذا الجبل. وأثبتت الأحداث، لاحقا، كيف حول الصهيونيون هذا المعتقد الدينى إلى برنامج سياسى، له أهداف خفية، ورغم تنوع الاتجاهات الصهيونية (يمينية ويسارية، متدينة وملحدة، اشتراكية ورأسمالية)، فقد ظلت المقولة الأساسية، التى تستند إليها التيارات الصهيونية، هى مقولة "الشعب اليهودى"، أى الإيمان بأن الأقليات اليهودية فى العالم لا تشكل أقليات دينية، ذات انتماءات عرقية وقومية مختلفة، إنما تشكل أمة متكاملة فى المنفى، بعيدة عن وطنها الحقيقى "أرض الميعاد"، أو "صهيون"، أى فلسطين(١٢).

فى الوقت نفسه، لجأت الرأسمالية الأوروبية إلى مختلف الأساليب، المشروعة وغير المشروعة، لوقف المد الثورى فى أوروبا، ومن أبرز تلك الأساليب، الاستيطان الكولونيالى، الذى بدأته فى القرن الثامن عشر، ووصل ذروته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. كما لجأت تلك الرأسمالية إلى استخدام "اللاسامية" لوصف الصراع الاجتماعى فى أوروبا، وكان اليهود ضمن الفئات الوسطى الأوروبية التى تضررت من الامبريالية، فكانت اللاسامية وسيلة تلك الفئات لتهيئة اليهود، اعتمادا

على المقولة الأساسية للاسامية، التى ترى فى اليهود أمة منفصلة عن الشعوب التى يعيشون بينها، وفى ذلك ضمانة لهم، بألا يشترك اليهود فى الحركات الثورية المناهضة للرأسمالية الامبريالية. وعليه جاءت "اللاسامية" لتعزز الأفكار الداعية لعدم انعتاق اليهود فى أوطان أوروبا.

اقترن ظهور "اللاسامية" بتطور عينى فى الفكرة القومية فى أوروبا، حيث كانت الحركات القومية، فى بدايتها، حركات تقدمية دينامية، هدفت إلى تصفية التجزئة الإقطاعية للأمم الأوروبية، وانعزالية ولايات الشعب الواحد. وفى الفترة التى نحن بصددها، على الرغم من بقاء جيوب الكفاح القومى فى الامبراطوريات المتعددة القوميات فى أوروبا، فإن الفكرة القومية فقدت طابعها التقدمى، وأصبحت أداة فى أيدى الامبرياليين، يستخدمونها لتوسيع امبراطورياتهم، تحت شعار "الكبرياء القومية"، و"تمدين الشعوب"(١٣).

نتيجة تلك الأوضاع، التى عمقت من انعزال اليهود فى أوروبا، وجد قادة الصهيونية الفرصة سانحة لدعوتهم، وظهرت جمعيات يهودية عديدة، تنادى بالعودة إلى "صهيون"، على أرض فلسطين، لعل من أبرزها جمعية "أحباء صهيون"، التى تألفت فى روسيا، عام ١٨٨٢، وكونها الصحفى اليهودى بيرناوم، بعد صدور قوانين مقيدة للأقليات اليهودية هناك.

أوفدت "أحباء صهيون"، فى عام نشأتها، أول فوج من المهاجرين إلى فلسطين، وزودتهم بالمال اللازم لإقامة أول المستعمرات الزراعية، قرب يافا، حيث أطلقوا عليها "ريشون ليزيون"، أى "رواد صهيون"، ولم تكن هذه حركة مشردين بؤساء من الطبقة العاملة اليهودية فى أوروبا، فقد

وقف وراء هذا النشاط البارونان:دى هيرميش،ودى روتشيلد، وكانا من أغنى أغنياء العالم، فى ذلك الوقت(١٤).

رغم أن جمعية "أحباء صهيون" لم تحقق النجاح المنتظر على مستوى الهجرة إلى فلسطين، بسبب أفكارها التى غلب عليها الطابع الثقافى النظرى، وكذا انضمام اليهود إلى الحركات الثورية الناهضة فى أوروبا، إلا أن "أحباء صهيون" شكلت همزة الوصل بين الدوائر اليهودية الداعية لمكافحة الاندماج، حتى ظهور تيودور هرتزل المؤسس الرسمى للحركة الصهيونية.

### الخطوات التأسيسية

تبلورت ملامح الحركة الصهيونية، قبل تأسيسها، فى كتاب "الدولة اليهودية"، الذى أصدره الصحفى النمساوى، تيودور هرتزل، عام ١٨٩٦، ودعا فيه إلى "إنقاذ اليهود من الاضطهاد"، وذلك ببناء دولتهم المستقلة، التى حدد كل تفاصيل الحياة بداخلها، بما فى ذلك الشعار الوطنى، مشيرا إلى أن الدولة اليهودية ليست وسيلة لخلاص اليهود من الاضطهاد والمعاناة فحسب، بل إنها، أيضا، تعد خلاصا لأوروبا من بوادر أزمات وانفجارات ثورية قادمة.

فى السياق نفسه، غازل هرتزل جمهور اليهود من الطبقة الكادحة، بقوله: "إن الهجرة ستعمل على تحسين أوضاعهم، فى حين أنها ستكون سببا للرخاء الاقتصادى فى أوروبا، عندما يحل المسيحيون مكان اليهود المهاجرين"(١٥).

حدد هرتزل فى كتابه، أيضا، القوى الاقتصادية التى تمكّن من تحقيق

هدف إنشاء الدولة، متمثلة فى إنشاء "جمعية اليهود"، وهمها تفعيل النشاط فى مجالى العلم والسياسة، أما الجانب المالى، فتتولاه "الشركة اليهودية"، التى ستقوم بتنظيم شؤون اليهود الراحلين، وسوف تنظم الاقتصاد والتجارة فى الدولة الجديدة.

هذا الدور اضطلعت به "جمعية الاستعمار اليهودى"، التى أنشئت عام ١٨٩١، بهدف مساعدة وتطوير عملية تهجير اليهود الفقراء، من أى مكان فى أوروبا، وآسيا، وقد أنشأها رجل الأعمال اليهودى الألمانى موريس دو هرش، الذى كان يعيش فى فرنسا،حينذاك، مختلطا بالأوساط الاحتكارية والامبريالية، التى كانت تقف وراء المشروع الصهيونى.

سجلت جمعية الاستعمار اليهودى، عام ١٨٩٣، فى لندن، كشركة مساهمة، رأسمالها مليونا جنيه استرلينى، رفع،فيما بعد، إلى ثمانية ملايين جنيه استرلينى، وكان من أبرز أعضائها البارون ادموند روتشيلد، الذى تولى، بين عامى ١٨٨٦- ١٨٩٠، الإشراف على شؤون المستعمرات اليهودية فى فلسطين، وأقام إدارة خاصة لهذا الغرض، اتخذت من مدينة الخليل الفلسطينية مقرا لها.

هذه التحركات شحذت جهود هرتزل، وقادة الصهيونية، للقيام باتصالات عديدة بأثرياء اليهود فى العالم، وحكومتى روسيا، وبريطانيا، وحتى الفاتيكان، وتركيا، لتأييد دعوة هرتزل، التى لم يكن يعنيه، فى تلك المرحلة، البلد الذى سيتوافد عليه اليهود، فقد كانت فلسطين والأرجنتين موقعين على قدم المساواة، مادام المطلوب مجرد مركز اقتصادى آمن لأثرياء اليهود.

هذا فيما أكده حاييم وايزمان، أحد أهم القادة الصهيونيين، على ضرورة أن ينظر إلى مشروع الاستيطان الصهيوني في ضوء المصالح الإمبريالية، وليس في ضوء الرؤى الانجيلية، أو التاريخ اليهودى، وكان وايزمان بعكس هرتزل، ومعه مؤيدون آخرون، لم تعن لهم الدولة اليهودية إلا فلسطين(١٦). وقد كتب وايزمان أنه "لو لم توجد فلسطين، لكان من الضرورى خلقها، من أجل مصلحة الامبريالية"(١٧).

بعد محاولات عديدة، استطاع هرتزل إقناع نخبة من زعماء اليهود بعقد المؤتمر الصهيونى الأول، فى بازل، بسويسرا (٢٩-١٨٩٧/٨/٣١)، بحضور ٢٠٤ أعضاء من اليهود، وفدوا من ١٥ دولة. وقد وضع المؤتمر ما عرف، فيما بعد، بـ"برنامج بازل الصهيونى"، محددا غايته الأساسية، وهى خلق "وطن للشعب اليهودى فى فلسطين".

***خرج المؤتمر بمجموعة من المقترحات، وحدد الوسائل الكفيلة لتحقيقها، ومنها:***

– تعزيز الاستيطان فى فلسطين باليهود المزارعين، والحرفيين، والمهنيين.

– تنظيم حركة تهجير اليهود فى العالم، بواسطة إنشاء المؤسسات المحلية والعامة، وفقا لقوانين كل بلد.

– الحصول على حق شرعى، معترف به دوليا، والحصول على موافقة الحكومات لتحقيق هدف الصهيونية.

– تقوية مشاعر "القومية اليهودية".

– إنشاء منظمة لتوحيد جميع اليهود، من أجل قضية الصهيونية.

من هنا حرصت القيادة الصهيونية على توزيع الأدوار فيما بين أعضائها، فى سبيل الارتباط بالدول الامبريالية القوية، وإن ركزت تلك القيادة، دائما، على الدولة الأقوى، وبمجرد أن تشعر القيادة الصهيونية بانتقال الموقع الأمامى فى المعسكر الامبريالى من دولة إلى أخرى، فإن تلك القيادة تسارع إلى نقل مركز ثقلها إلى صاحبة الموقع الأمامى.

ففى خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨)، قدم حاييم وايزمان عرضا إلى الامبريالية البريطانية، تضمن السماح لليهود بدخول فلسطين، تحت نفوذها، وإذا قامت بريطانيا بذلك، فستكون حققت، كقوة كبرى، هدفين رئسيين، يتمثل الأول فى نزوح أكثر من ٢٠ مليون يهودى، وربما أكثر، مما يعنى حلا للمسألة اليهودية فى الأوروبا، والهدف الثانى هو وجود حراسة فعالة لقناة السويس، وقد كان لوايزمان ما أراد، وقبل أن تضع الحرب العالمية الأولى أوزارها، خرج "وعد بلفور"، القاضى بالسماح لليهود بإقامة "وطن قومى" على أرض فلسطين، تحت الانتداب البريطانى. ليبدأ فصل جديد من التنظيم الصهيونى، الذى حقق نجاحا آخر، بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥)، وتقام الدولة الصهيونية، فى عام ١٩٤٨ .

*** هوامش الفصل الثالث :**

(١) وجيه حسن قاسم، نظرة جديدة فى التحالف الصهيونى الامبريالى، القاهرة، دار البيادر للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ٣٣ .

(٢) لمزيد من التفاصيل: عبد الوهاب المسيرى، الأيديولوجية الصهيونية، سلسلة عالم المعرفة (٦٠)، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٢، ص٣٣.

(٣) ابراهام ليون، المفهوم المادى للمسألة اليهودية، تقديم ارنست ماندل، بيروت، دار

الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٣، ص ١٨- ٢١ .

(٤) اميل توما، جذور القضية الفلسطينية، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، يونيو/ حزيران ١٩٧٣، ص ٣١- ٣٢ .

(٥) المسيرى، مصدر سبق ذكره، ص ٣١- ٣٢ .

(٦) عبد القادر ياسين، من تحت الصفر إلى الثورة، القاهرة، مكتبة دار الكلمة، ٢٠٠٢، ص ٩٦ .

(٧) حبيب قهوجي (مشرفا)، اسرائيل خنجر أمريكا، دمشق، سلسلة دراسات مؤسسة الأرض (٨)، ١٩٧٩، ص ١٥ .

(٨) المصدر نفسه، ص ١٧ .

(٩) لمزيد من التفاصيل ، انظر : الموقع الالكترونى www.nakba.sis.gov.ps، الخلفية التاريخية للنكبة.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) توما، مصدر سبق ذكره، ص٤٠-٤١.

(١٤) فتحى الرملى، الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار، القاهرة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ص ٤٦ .

(١٥) تيودور هرتزل، الدولة اليهودية، ترجمة محمد يوسف عدس، القاهرة، دار الزهراء للنشر، ص ٤٦ .

(١٦) هايمان لومر، الصهيونية ودورها فى السياسة العالمية، ترجمة محمد مستجير مصطفى، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٤، ص ٩ .

(١٧) المسيرى، مصدر سبق ذكره، ص١٤١.


الفصل
الرابع

# الصهيونية والنازية

4

محمود عبده

تباكى الصهيونية، طوال العقود الستة الماضية، وما انفكوا يتباكون، على ضحايا النازية من اليهود. بل ما فتىء الصهاينة يبتزون المجتمع الدولى، تحت اسم تعويض ضحايا النازية. بدأ الأمر بابتزاز الاعتراف الدولى بالكيان الصهيونى؛ وما يزال الابتزاز مستمرا، حتى اليوم، فى التعويضات و(الإتاوات)، التى تدفعها الدولة الألمانية، وبعض الدول الأخرى، كسويسرا، التى وضعها حظها العاثر فى طريق الصهيونية، فى السنوات الأخيرة.

وبدا الأمر كما لو كانت "الصهيونية" ضحية بريئة "للنازية" المجرمة المتوحشة، وأن الضحية المسكينة تطلب بعضا من حقها، والواجب ألا تغبن فيه. ولأن التعويض كان من أراضينا، ودمائنا، وأعراضنا، وأموالنا– نحن العرب والمسلمين–، كان حتما علينا أن نولى دراسة علاقة الصهيونية بالنازية، اهتمامنا، وأن نتعقب تلك العلاقة، عبر مراحلها المختلفة، لنصل إلى حكم منصف ودقيق، يزيدنا علما وإدراكا لظاهرة "الصهيونية"، عدونا المباشر فى العقود الأخيرة.

ولابد، فى البداية، من التأكيد على أمر شديد الأهمية، وهو أن هذا الفصل يتناول، علاقة الصهيونية، كمنظومة فكرية، وحركة سياسية، تدعو إلى إقامة دولة قومية لليهود على أرض فلسطين، بالنازية، كمنظومة

فكرية، وأساليب عملية، آمن بها النازيون، واتبعوها فى سياساتهم الفعلية. راغبين بذلك التأكيد فى اجتناب الخلط، الذى يقع فيه كثير مناء بين اليهودية، كدين كتابى، ذى أصول سماوية، والصهيونية، كحركة سياسية قامت فى أوساط الجماعات اليهودية، داعية إلى استيطان فلسطين، والعدوان على الحقوق العربية والإسلامية. ولهذا التمييز، بين مطلق اليهود، والصهاينة، أهميته التى ستظهر فى ثنايا الموضوع.

**أولا– الأصول الفكرية المشتركة بين الصهيونية والنازية**

النازية والصهيونية ليستا، بأية حال، انحرافا عن الحضارة الغربية الحديثة، بل تمثلان تيارين أساسيين فيها. ولعل أكبر دليل على أصالة انتماء الصهيونية إلى الحضارة الغربية، أن الغرب عمل على تعويض

اليهود، عمَّا لحق بهم على يد النازية، بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث أبناء الشعب الفلسطينى. وقد ارتكب الصهاينة ما اقترفوه من فظائع، فى فلسطين، فى خلال التشكيل الامبريالى الغربى، واستخدموا كل مواريثه وأدواته من غزو، وقمع، وترحيل، وتهجير. والغرب الذى أفرز "هتلر" وفظائعه، هو نفسه الذى تقاسم احتلال الأمم الضعيفة المغلوبة، سنين طويلة، وهو عينه الذى ساند الكيان الصهيونى، فى عدوانه على الأرض العربية، طوال العقود الستة الماضية، وهو الذى يتفرج، يوميا، على ذبح الفلسطينيين، دون مبالاة[1].

تدور النازية والصهيونية، كلتاهما، حول قيمة مطلقة، أحيطت بقداسة دينية، قيمة: "الدم والتربة". وكلتاهما تعبد "الشعب العضوى المختار"، وكلتاهما حولت الدنيوى المدنس إلى مقدس. وقد ظهرت فى ألمانيا، فى ثلاثينات القرن العشرين، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين، الذين انتبهوا إلى العناصر الفكرية المشتركة بين الصهيونية والنازية. ومن هؤلاء "هاينريش فريك"، الذى حذر اليهود من فكرة "الشعب العضوى"، التى كان يعتنقها النازيون والصهاينة. كما عرَّف كلا من النازية والصهيونية، بأنهما حركتان حولتا الارتباط بالأرض، والارتباط بالحياة الدنيوية، وهما من الأمور المادية، إلى عقيدة دينية. وأشار "فريك" إلى أن النازية والصهيونية تتبنيان الرأى القائل بعدم إمكان قبول ألمانيا اليهود أو التسامح معهم[2]. ومن قبل، سنة ١٩٢٦، نبَّه المفكر الألمانى "فيلى ستارك" إلى أن الصهيونية والنازية، بتحويلهما الدنيوى المدنس إلى مقدس، تمثلان تهديدا لليهودية والمسيحية، بل للجنس البشرى بأسره[3].

أخذت النازية عقائدها الأساسية من روافد عدة، أهمها: الفكر النيتشوى، والفكر الصهيونى نفسه.

يقصد بالفكر النيتشوى: منظومة شبه متكاملة، استنبطها العقل الغربى من أعمال الفيلسوف الألمانى "فريدريك نيتشه". وحققت تلك المنظومة من الذيوع والشيوع ما يفوق أعمال نيتشه الفلسفية[٤].

والمتأمل للمنظومة النيتشوية (وهى من أهم روافد الفكر النازى)، يجد شبه تماثل بينها وبين الصهيونية، فى كثير من الأسس والمنطلقات، ومنها[٥]:

- داخل منظومة نيتشه، ينقسم العالم، وبحدة، إلى فريقين: السادة الأقوياء من أعضاء الشعب العضوى (السوبرمن)، والعبيد الضعفاء المنتمين إلى الفريق الآخر (السبمن). والسادة الأقوياء لهم حقوق مطلقة، كشعب مختار نقى الدم. أما الضعفاء فإن مآلهم إلى الاختفاء (عن طريق الإبادة الكاملة، أو الاضطهاد ونفى الشخصية). وفى المنظومة الصهيونية نجد البشر ينقسمون إلى فريقين: اليهود، أصحاب الحقوق المطلقة (شعب الله المختار)، والأغيار (خصوصا الفلسطينيين)، الذين لا حقوق لهم، فحقوق اليهود المقدسة تَجُبُ حقوق الآخرين.

- دعا نيتشه الإنسان إلى نبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء، والتحول إلى حيوان مفترس، يعيش فى حال حرب دائمة. وقد طرحت الصهيونية نفسها كأيديولوجية تحوِّل يهود (المنفى)، المترهلين المؤمنين بأخلاق الضعفاء، إلى وحوش (يهود)، يؤمنون بأخلاق القوة، ويحسمون بها كل القضايا، ويفرضون رؤاهم بقوتهم وعتادهم. والمستوطنون

الصهاينة فى فلسطين يحيون -اتباعا لتلك الأيديولوجية- فى حال حرب وصراع دائمين مع العرب، داخل فلسطين وفى الجوار.

- تعبر النيتشوية والصهيونية، كلتاهما، عن عبادة الذات والأسلاف، حيث يعبد الإنسان القومية، باعتبارها تجسيدا لذاته. وكلتاهما تدعو الإنسان إلى التوسع، والنمو على حساب الآخر، وهزيمته. وكلتاهما تدعو لمعاداة الفكر واحتقاره، ولتمجيد الفعل المباشر، وتجعل القوة الأساس الوحيد لأى نسق أخلاقى.

إذاً، ثمة أصول فكرية مشتركة عديدة بين الصهيونية والنيتشوية، تصل إلى شبه التماثل. ولأن النازية اعتمدت، فى كثير من أصولها الفكرية، على النيتشوية، فإن الأصول المشتركة للنازية والصهيونية، تتأكد بشكل لا يقبل الجدل.

بيد أن الأمر يتجاوز ذلك، فثمة تأثر مباشر فى النازية بالأفكار الصهيونية، بحيث يمكن القول إن النازيين قد رجعوا إلى الأدبيات الصهيونية، فى صياغة بعض الأفكار والأصول النازية، ونستدل على ذلك مما يلى:

- فى أثناء محاكمات النازيين، بُعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان الزعماء النازيون يؤكدون، واحدا بعد الآخر، على أن الموقف النازى من اليهود، تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية، خصوصا كتابات "مارتن بوبر"، عن ارتباط اليهود عضويا "بالدم والتربة"، ومن ثم وجوب عودة اليهود إلى فلسطين، حيث التربة التى يتمكن الدم اليهودى من التفاعل معها، والإبداع من خلالها(٦).

وقد قال "ألفريد روزنبرج"، أهم المنظرين النازيين ، خلال المحاكمة، إنه جمع آراءه، هو نفسه، من الأدبيات الصهيونية، ومن المؤرخين

الصهيونيين. وأشار إلى دعوة المفكر الصهيوني مارتن بوبر اليهود للعودة إلى أحضان آسيا(٧). كما أشار المنظِّر النازى "سترايخر"، فى خلال محاكمته، إلى أنه تعلم فكرة "النقاء العرقى" من النبى "عزرا". وكان نص كلمات سترايخر: "لقد تأكدت، دائما، من أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذى تحتذيه كل الأجناس، فلقد خلقوا قانونا عنصريا لأنفسهم، قانون موسى {المفترى عليه}، الذى يقول: (إذا دخلت بلدا أجنبيا فلن تتزوج بنساء أجنبيات)"(٨).

وكانت الأدبيات الصهيونية، الخاصة بنقاء اليهود عرقيا، ثرية إلى أقصى حد فى أوروبا، حتى نهاية ثلاثينات القرن العشرين(٩).

– كان النازيون يؤمنون بوجود " دياسبورا"* ألمانية "**Auslandeutsch**"، تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانى. ويجب على أعضاء هذا الشتات الألمانى، مثل أعضاء (الشتات اليهودى)، أن يعملوا من أجل الوطن الأم. وبما أن العودة للوطن أمر عسير، كما هى الحال مع عودة اليهود إلى فلسطين، فقد اقترح النازيون ما يشبه "نازية الشتات"، (مثل "صهيونية الشتات")، بتشجيع الألمان، خارج ألمانيا، على دراسة الحضارة واللغة الألمانيتين. وأقام النازيون ما يشبه "المنظمة النازية العالمية"، التى نالت مكانة فى ألمانيا، تشبه، من بعض الوجوه، مكانة المنظمة الصهيونية فى الدولة الصهيونية. وقد تعامل الألمان، فى كل أنحاء العالم، مع السفراء والقناصل الألمان، تماما كما يتعامل اليهود الصهاينة، مع سفراء وقناصل الكيان الصهيونى، فى مختلف الدول(١٠).

---

* مصطلح صهيونى يستخدم للإشارة إلى اليهود الموجودين خارج فلسطين بالرغم عنهم.

إذاً، فالنازية قد تأثرت بالصهيونية، مباشرة، وبشكل غير مباشر (عبر التأثر بالنيتشوية التى تتشابه إلى حد بعيد مع الصهيونية). ولكن يبقى سؤال: ألم تتأثر الصهيونية بالنازية على مستوى الفكر والنظرية؟

يمكن الجزم بذلك التأثر، يقينا، إذا لاحظنا الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة، الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية. وها هو "ناحوم جولدمان" (رئيس المؤتمر اليهودى)، يؤكد على أن "هرتزل"، نبى الصهيونية وزعيمها الأشهر، قد توصل إلى فكرته القومية، من خلال معرفته بالحضارة والفكر الألمانيين[١١]. وقد تأثر كل من الفكر الصهيونى والنازى بالفكر الرومانتيكى الألمانى، الذى أمدهما بفكرة "الشعب العضوى"، التى تتحدث عن الشعب (الألمانى أو اليهودى)، باعتباره كيانا جماعيا له تاريخه الخاص وتراثه الحضارى المتميز، بل سماته البيولوجية الخاصة به[١٢].

فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، كان كثير من المستوطنين الصهاينة، فى فلسطين، يكنون الإعجاب بالنازية، ويظهرون تفهما عميقا لها، ولمُثُلها، ولنجاحها فى "إنقاذ" ألمانيا. بل عدّوا النازية حركة "تحرير وطنى"، (ربما مثل الصهيونية، التى تزعم الآن أنها، هى الأخرى، حركة تحرير وطنى للشعب اليهودى). ولذا كان الشباب الصهيونى، يهتفون على أرض فلسطين: " ألمانيا لهتلر، إيطاليا لموسولينى، وفلسطين لجابوتنسكى"! وقد سجل حاييم كابلان، وهو صهيونى كان موجودا فى "جيتو وارسو" فى أثناء حصار النازى إياه، إنه: "لا يوجد أى تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين العَالَم، فيما

يخص المسألة اليهودية. فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما ترى إنه لا مكان لليهود فى الحضارات الأجنبية"(١٣).

عليه ، يمكن إجمال الأصول الفكرية المشتركة لدى الصهيونية والنازية، فيما يلى(١٤):

- التعصب القومى، والتأكيد على روابط الدم والتراب، وهو ما يؤدى إلى استبعاد الآخر.

- النظريات العرقية (حيث ترتب الأعراق حسب سلم عنصرى).

- تقديس الدولة.

- النزعة الداروينية النيتشوية.

- التماثل البنيوى فى الخطاب، فكلتاهما تستخدم مصطلحات عنصرية، مثل: "الشعب العضوى"، و"الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه"، و"الشعب المختار"... وقد سئل هتلر عن سبب معاداته لليهود، فكانت إجابته القصيرة الحاسمة: "لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران، ونحن وحدنا شعب الله المختار. هل هذه إجابة شافية عن السؤال؟"

عموما، اتفق النازيون مع الصهاينة على المنطق الأساسى لجميع النزعات العنصرية، ألا وهو فكرة نقاء الدم(١٥). وإن كان يجب ألا ننسى أن ثمة مصادر فكرية أخرى مشتركة بين الفكرين، وهى: أساطير العهد القديم، وتحويلها من أساطير دينية إلى عقائد سياسية، والفكر الإمبريالى الغربى(١٦).

الآن، وقد اتضح التقارب الكبير بين النازية والصهيونية على المستوى الفكرى، يأتى السؤال عن المواقف العملية لكل طرف تجاه الآخر.

**ثانيا- موقف النازية من الصهيونية:**

استغل النازيون، فى ترويج نظرتهم إلى اليهود، الدعاية الصهيونية. فقد نشر الصهاينة، فى ألمانيا نفسها، المزاعم الصهيونية القائلة بتميز اليهود عرقيا، وبانفصال اليهود، قوميا، عن كل القوميات الأوروبية، وذلك حتى قبل ظهور النازيين كقوة سياسية. ففى سنة ١٩١٢ صدر عن المنظمة الصهيونية الألمانية "قرار بوزن"، الذى أصبح، منذ ذلك العام، الإطار العقائدى للصهيونية الألمانية، التى تحولت بسببه إلى أيديولوجية قومية ذات طابع استيطانى، وتخلت عن أية أبعاد غير قومية، أو ذات طابع خيرى أو اندماجى. وابتداء من عشرينات القرن العشرين، بدأ الزعماء الصهاينة، فى ألمانيا، يطلقون التصريحات التى تؤكد على الهوية اليهودية العضوية الخالصة، وتنكر على اليهود انتماءهم للأمة الألمانية(١٧).

التقط النازيون معاداة اليهود من أمثال تلك التصريحات، واستغلوها فى حملة الكراهية التى شنوها على اليهود؛ إذ قام النازيون بطباعة التصريحات والكتيبات الصهيونية، وتوزيعها. وقد سبقت الإشارة إلى اعتراف الفريد روزنبرج، فى أثناء محاكمته، بجمعه كثيرا من آرائه من الأدبيات الصهيونية، ومن المؤرخين الصهاينة. وقال روزنبرج: "إن بوبر، على وجه الخصوص، أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا، لأن هناك، وهناك فحسب، يمكن العثور على جذور الدم اليهودى، والشخصية القومية اليهودية"(١٨).

اكتشف النازيون، كذلك، مدى عمق تناقض مصالح الصهاينة مع مصالح اليهود، واتفاق الموقف النازى مع الموقف الصهيونى تجاه اليهود. فاليهودى الصهيونى، الذى يخدم هويته العضوية، هو شخص يستحق احترام النازية؛ لأنه يدرك الواقع من خلال إطار عضوى وثنى، يشبه الإطار النازى. على عكس اليهودى "المتألمن"، الحريص على الاندماج فى المجتمع الألمانى، والذى يتمسح بالهويات العضوية للآخرين، ولا ينجح، بطبيعة الحال، فى اكتسابها، لأنه حبيس هويته، شاء أم أبى. ولعل هذا ما يفسر اعتبار النازيين عدوهم الحقيقى هو: اليهود الأرثوذكس، والجماعة المركزية للمواطنين اليهود، من أتباع العقيدة اليهودية. ولعله يفسر، أيضا، لِمَ كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية، تتسم بشئ من الود والتفاهم. فبينما كان اليهود الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين، وبدمجهم فى مجتمعاتهم؛ كان الصهاينة يعارضون الاندماج، ويعارضون منح اليهود أى حق، إلا حق الهجرة إلى "الوطن القومى اليهودى"(١٩).

لكل هذا شجع النظام النازى النشاط الصهيونى، ودعم المؤسسات الصهيونية، وسمح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها، من تعليم، وتدريب على الاستيطان، ونشر مجلاتها. بينما منع النظام اليهود الاندماجيين والأرثوذكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات، أو مزاولة أى نشاط آخر. كما شجع النازيون المدارس العبرية، والمؤسسات الثقافية ذات التوجه اليهودى، التى تساعد على تميز الهوية اليهودية، والرجوع عن الاندماج. بل مُنع اليهود من رفع الأعلام الألمانية، وسُمح لهم، فحسب، برفع "العلم اليهودى" (أى علم المنظمة الصهيونية)(٢٠).

كان النازيون ينظرون إلى الصهاينة باعتبارهم طرفا يمكن محاورته، والتفاهم معه، مادام يخدم المخططات النازية بشأن اليهود[٢١].

## ثالثا- موقف الصهيونية من النازية:

كان معنى تولى هتلر السلطة فى ألمانيا، فى الثلاثين من كانون الثانى/ يناير ١٩٣٣، أن عداء اليهود (اللاسامية) صار السياسة الرسمية للحكومة الألمانية. ورافق هذا الحدث ازدياد حدة السياسات المضايقة لليهود، التى تميزت بها النازية. وأصبح فى مقدور النازيين، المتسلحين بالجهاز الكامل للحكومة، أن يشنوا حملة إرهابية فعالة على اليهود، بقصد صرفهم، وإبعادهم عن البلاد بالقانون، والعنف، والإساءة، والحرمان من حماية القانون[٢٢].

مع ذلك رحب الصهاينة بوصول النازية للحكم، لأنه أدى إلى قوة متزايدة، إلى حد كبير، للصهيونية بين اليهود الألمان. فاليهود الألمان رأوا فى السياسات النازية عزما أكيدا على إبطال "الاندماج" اليهودى فى المجتمع، فتدفقوا إلى صفوف الحركة الصهيونية. كما أدى صعود هتلر إلى سحق المنافسين الرئيسيين للأيديولوجية الصهيونية وسط اليهود الألمان. فقد تحولت "الرابطة المركزية للمواطنين الألمان ذوى الديانة اليهودية"، التى انتمى إليها ٩٥٪ من اليهود المنظمين فى ألمانيا فى أوائل ثلاثينات القرن العشرين، إلى منظمة "معادية للدولة"، بعد أن اتخذت الرابطة "النضال ضد اللاسامية" مهمة رئيسية. وصار للصهاينة، وحدهم، فرصة التعامل، والتفاوض مع السلطات الألمانية[٢٣].

بدا صعود هتلر إلى السلطة، لليهود، على أنه، بصورة رئيسة، الهزيمة

الحاسمة للاندماج. ومن هنا استطاع الصهاينة، لفترة من الوقت على الأقل، القيام بمقدار ما من التعاون "غير الإجرامى" مع السلطات النازية. واعتقد الصهاينة، كذلك، أن "إلغاء الاندماج"، مع هجرة الشبيبة اليهودية، والرأسماليين اليهود، إلى فلسطين، كما تمنوا، يمكن أن يكون "حلا عادلا للطرفين". وكان كثير من المسؤولين الألمان يحملون هذا الرأى، فى ذلك الوقت(٢٤).

هكذا لم ينظر الصهاينة إلى تسلم النازيين السلطة فى ألمانيا على أنه نكبة قومية، بل كفرصة نادرة، تساعدهم فى تحقيق آمال الصهيونية(٢٥).

لكن هل اقتصرت العلاقة بين النازية بالصهيونية، على الترحيب والتفاهم المتبادلين، أم تطورت العلاقة إلى مستويات أعلى وأوثق، تصل إلى حد التحالف والتعاون؟

**رابعا- التحالف النازى الصهيونى:**

مع تشابه النازيين والصهاينة، إلى حد بعيد، فى الأصول الفكرية، واتفاقهم على موقف واحد من اليهود: (الإبعاد من ألمانيا)، لم يكن عجيبا، عند مجئ هتلر للحكم سنة ١٩٣٣، أن يسود جو التحالف والتعاون فى العلاقات بين الحركة الصهيونية وألمانيا النازية، على أساس "رغبتهما المشتركة فى جعل ألمانيا خالية من اليهود"(٢٦)، وأن يأخذ ذلك التحالف صورا عملية متنوعة.

كان الصهاينة هم البادئين، والمبادرين إلى التعاون مع النازية، فقد شعروا بقوتها، وسعوا فورا إلى كسب تأييد قادتها. ففى ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٣٣ وجه "الاتحاد الصهيونى الألمانى" مذكرة إلى الحزب النازى،

ورد فيها ما يلى: "... ويوسع اليهود الواعين بهويتهم (الصهاينة)، الذين نتحدث بالنيابة عنهم، أن يجدوا لأنفسهم مكانا فى إطار الدولة الألمانية، لأنه لا توجد لديهم مشاعر الكراهية، التى يكنها اليهود المندمجون، لا محالة... ونحن على يقين من إمكان قيام علاقات طيبة بين الدول الألمانية، وأولئك اليهود الواعين بالروابط التى تجمعهم. ولتحقيق هذه الأهداف العملية، تأمل الحركة الصهيونية فى أن يكون بوسعها التعاون، حتى مع حكومة معادية، تماما، لليهود.. فليس هناك ما يعوق تحقيق الهدف الصهيونى، سوى مشاعر الكراهية، التى يكنها اليهود فى الخارج، وعدائهم التوجهات الحالية لألمانيا. ومن ثم فإن الدعوات المطالبة بالمقاطعة، والموجهة ضد ألمانيا فى الوقت الراهن، ليست صهيونية فى جوهرها...". ثم تضيف المذكرة قائلة: إنه "فى حالة موافقة الألمان على هذا التعاون، فسوف يبذل الصهاينة قصارى جهدهم لإثناء اليهود فى الخارج عن الاستجابة لدعوات المقاطعة الموجهة ضد ألمانيا"(٢٧).

كان طبيعيا أن يرحب الزعماءالنازيون بموقف القادة الصهاينة، الذين يشاركون أولئك الزعماء فى الرغبةفى التخلص من اليهود، بدافع من تمسكهم ـــأى الصهاينة– بهدف أوحد، وهو إنشاء دولتهم فى فلسطين. فمثلا، كتب الفريد روزنبرج: "يجب دعم الصهيونية، بكل قوة، حتى يتسنى نقل مجموعة كبيرة من اليهود الألمان إلى فلسطين، سنويا". وكتب رينهارت هايريش مقالا، فى سنة ١٩٣٥، حينما كان رئيسا لجهاز "الأمن الخاص النازى"، فى الصحيفة الناطقة بلسان هذا الجهاز. كان عنوان المقال "العدو المرئى"، وجاء فيه: "ينبغى أن نميز بين نوعين من اليهود،

وهما: الصهاينة، وأنصار الاندماج. فالصهاينةيتبنون مفهوما عرقيا صارما، ويساهمون في بناء دولتهم اليهودية، عن طريق الهجرة إلى فلسطين... ولهم منا كل الأمنيات الخالصة، ومشاعر التأييد الرسمي"(٢٨).

مع اتفاق الصهيونية والنازية، واحتياج كل طرف إلى مساعدة الآخر، بدأت عجلة التعاون في الدوران، عبر خطوات ومراحل متتالية. ويمكن رصد أهم أشكال ذلك التعاون فيما يلي(٢٩):

- أرسلت السلطات الألمانية أحد مسؤولي الحزب النازي الهامين (البارون ليوبولد فون ملدنشتاين)، إلى فلسطين، بموافقة سلطات الانتداب البريطاني، ليضع أسس التعاون الصهيوني/ النازي. رافق ملدنشتاين، الذي كان، أيضا، ضابطا في حرس هتلر الخاص المعروف باسم "إس إس"، أحد مسؤولي "الاتحاد الصهيوني" في ألمانيا (كورت توخلر). وبُعيد زيارته الحركة الصهيونية في فلسطين، رقي ملدنشتاين إلى منصب رئيس القسم اليهودي في دائرة المخابرات، التابعة للإس إس، حيث كان من معاونيه موظف اسمه "أدولف ايخمان". ومن خلال وظيفته نفذ فون ملدنشتاين السياسة المبنية على تهجير اليهود إلى فلسطين، والتعاون مع الحركة الصهيونية، لتوسيع دائرة نفوذها داخل الطائفة اليهودية في ألمانيا، لتشجيع أعضائها على الهجرة إلى فلسطين. فصدرت الأوامر للمسؤولين النازيين بتشجيع نشاطات الصهاينة، وعرقلة نشاطات اليهود الآخرين. فمثلا شجع حرس الإس إس بعض المراكز الصهيونية على تدريب الشباب اليهود على الزراعة، وبعض المجالات الأخرى، ليعملوا بعد ذلك في الكيبوتزات على أرض فلسطين.

وعندما تقاعد ملدنشتاين، خلفه ايخمان فى منصبه، وكان تلميذا نجيبا لسلفه، ومنفذا نشيطا ومخلصا للسياسة النازية.

ما لبثت العلاقة بين الصهيونية والنازية أن اتخذت إطارا رسميا فى اتفاقية، هى الأولى فى سلسلة اتفاقيات، سميت اتفاقية "هعفراه".

**اتفاقية هعفراه:**

جاءت جهود الأوساط اليهودية، المناهضة للنازية، لتنظيم مقاطعة لألمانيا النازية، كإجراء مضاد للمقاطعة التى نظمتها السلطات النازية، فى الأول من نيسان/ أبريل ١٩٣٣، ضد اليهود الألمان، وكانت "مقاطعة عامة... لجميع الأماكن، والأعمال التجارية اليهودية، ولجميع الأطباء، والمحامين، وغيرهم من اليهود من أصحاب المهن الأخرى. ومنذ ذلك اليوم، وللأعوام الستة والنصف التالية، كانت هناك سلسلة متعاقبة من الأعمال الوحشية المتزايدة؛ إلى أن حملت الحرب العالمية الثانية مرحلة من الهمجية لا مثيل لها. وكانت المقاطعة مجرد تمهيد لنظام اضطهاد، وسلب اليهود جميع مصادر الرزق"(٣٠).

كان اليهود، فى كثير من أجزاء العالم، يأملون بأنهم، إذ يردون بمقاطعة السلع الألمانية، يستطيعون إظهار تضامنهم مع أبناء ملتهم المضطهدين، وربما يضغطون على النظام النازى لتخفيف الاضطهاد. إلا أن توقيع الصهاينة "اتفاقية هعفراه" نسف هذا الأمل بشكل كبير(٣١).

سعت السلطات الألمانية، بتوقيع الاتفاقية، إلى هدفين معا: خرق المقاطعة الدولية التى نظمتها الجماعات اليهودية، فى الدول الأجنبية المختلفة، ضد ألمانيا، وتسهيل رحيل اليهود من الرايخ إلى فلسطين. ولكن، شيئا فشيئا، صار الهدف الثانى هو الأهم فى برلين(٣٢).

الهعفراه كلمة عبرية تعني "نقل"، أى نقل اليهود من ألمانيا إلى فلسطين، الذى كان هدفا رئيسيا للنازية والصهيونية معا. وقد عقدت الاتفاقية بين النازيين والمستوطنين الصهاينة فى فلسطين، ومنحت ألمانيا، بموجبها، مؤسسة "الهعفراه" والصهيونية حق احتكار البضائع الألمانية المصدرة إلى فلسطين. وكان من نتائج الاتفاقية استيراد خبرة الفنيين اليهود الألمان، والآلات الألمانية، التى احتاجتها المستوطنات، كما زادت الصادرات الألمانية إلى فلسطين ثلاثة أضعاف، من سنة ١٩٣٢-١٩٣٧ (من ١١ مليون مارك إلى ٣٢ مليون مارك). وعند نشوب الحرب العالمية الثانية، كان تابعا للهعفراه ١٢ ألف حساب مصرفى، وكانت قد تعاملت مع ١٦٠ مصرفا، وقامت بنصف مليون عملية، وبلغ مجموع ما حولته ما يعادل ١٤٠ مليون مارك. وقد أنعش كل هذا اقتصاد المستوطنين، فشهدوا فترة رخاء، وهى الفترة التى أدت إلى إفساد البناء الاقتصادى للمجتمع العربى الفلسطينى، ولم يكن من قبيل الصدفة أن تجئ ثورة ١٩٣٦- ١٩٣٩ الوطنية الفلسطينية فى أعقاب تنفيذ الاتفاقية. كما كان لتنفيذها انعكاسات طيبة على الاقتصاد النازى، وتمكن النازيون من التخلص من حوالى ١٦٠ ألف يهودى، هاجروا إلى فلسطين، بمقتضى "الهعفراه"، بين عامى ١٩٣٣- ١٩٣٩(٣٣).

بموجب الهعفراه، تأسست، فى سنة ١٩٣٣، شركتان، هما شركة "هعفراه" فى تل أبيب، وشركة "بالترو" فى برلين. وكان النظام المتبع هو إيداع أى يهودى، راغب فى الهجرة، مبلغ ألف جنيه استرلينى، كحد أدنى، فى مصرف "فاسرمان" فى برلين، أو مصرف "فاربورج" فى هامبورج، على أن يستخدم المصدِّرون اليهود حصيلة هذه المبالغ فى

شراء بضائع ألمانية، وتصديرها إلى فلسطين، ثم تسديد ثمنها بالجنيه الفلسطيني، بإيداعه فى حساب شركة هعفراه، فى المصرف "الانجليزى الفلسطيني" فى تل أبيب. ولدى وصول المهاجر إلى فلسطين، يحصل على مبلغ مالى يعادل المبلغ الذى أودعه من قبل فى ألمانيا(٣٤).

شارك فى استثمارات شركة هعفراه عدد كبير ممن تقلدوا، فيما بعد، رئاسة الوزراء فى الدولة الصهيونية، وفى مقدمتهم: بن جوريون، وموشى شاريت (وكان اسمه آنذاك موشى شرتوك)، وجولدا مائير، التى كانت تدعم الشركة من نيويورك، وليفى أشكول، الذى كان ممثلا للشركة فى برلين(٣٥).

كانت صفقة رابحة للطرفين، فقد نجح النازيون فى كسر طوق الحصار، حيث تمكن الصهاينة من بيع بضائع ألمانية فى بريطانيا نفسها. بينما حقق الصهاينة هدفهم المتمثل فى "الهجرة الانتقائية"، حيث لم تتح الهجرة إلا لأصحاب الملايين (والذين تكفل رؤوس أموالهم تنمية الاستيطان الصهيونى فى فلسطين). فمن منطلق الأهداف الصهيونية، كان إنقاذ رؤوس الأموال الصهيونية من ألمانيا النازية، بما يتيح تحقيق المشروع الصهيونى، أمرا أكثر أهمية من إنقاذ أرواح اليهود البؤساء، أو غير القادرين على العمل، أو القتال، الذين يمثلون عبئا ثقيلا(٣٦).

**خامسا– التعاون النازى/ الصهيونى خلال الحرب الثانية:**

ربما وجد الصهاينة مبرراً لتعاونهم مع النازيين، خلال الفترة ١٩٣٣–١٩٣٩، وهى الفترة السابقة على اندلاع الحرب العالمية الثانية. وأيا ما كانت قيمة ذلك المبرر، فإن الأمر يختلف، تماما، بعد نشوب الحرب؛ إذ

أخذت الاضطهادات النازية للأجناس غير الآرية تتصاعد، بعنف ودموية، وبدأت موجة الجرائم النازية تصل إلى ذروة ارتفاعها، خلال سنى الحرب. فماذا كان موقف الصهيونية، الغربية عموما، والألمانية خصوصا، من النازية؟

الملاحظ أن الصهيونية التزمت فى مواقفها، طوال تاريخها، هدفا واحدا، هو إنشاء الدولة الصهيونية، وأن الصهاينة لم يتورعوا عن اتخاذ أية وسيلة تساعد، حسب وجهة نظرهم، فى إنجاز ذلك الهدف. فى ضوء ذلك، يمكن فهم وتفسير، لا تبرير، المواقف الصهيونية عموما، بما فى ذلك المواقف التى ألحقت المصائب باليهود، أو أسهمت فى إيذائهم، ومعاناتهم.

تحالفت الصهيونية مع السلطات النازية، واتفقتا على العمل على نقل اليهود من ألمانيا، إلى حيث ترغب الصهيونية، ولم يبال الصهاينة بما تلحقه النازية ببنى ملتهم من اليهود، فى سبيل تحقيق الهدف الصهيونى. بل رأى الصهاينة فى اضطهاد النازى اليهود خير معين، لأنه يضطر اليهود إلى الهجرة من الدول الواقعة تحت سلطة النازية، مما يزيد من الهجرة إلى فلسطين.

لعب الصهاينة على كل الحبال، وجلسوا على كل الموائد. ومن قبل، ذهبوا إلى موسولينى، طالبين مساندته، وأفلحوا فى إقناعه، حتى قال موسولينى لناحوم جولدمان، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية: "سأساعدكم فى إقامة هذه الدولة اليهودية (الصهيونية)". كان ذلك فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٣(٣٧).

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، وقفت جميع المنظمات اليهودية، تقريبا، إلى جانب الحلفاء، واتخذ عدد من أبرز القادة الصهاينة، من أمثال حاييم وايزمان، موقفا صريحا مؤيدا للحلفاء. لكن الصهاينة الألمان، وكانوا قلة قليلة آنذاك، اتخذوا موقفا مغايرا، فتبنوا، من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤١، سياسة المهادنة، بل التعاون مع هتلر(٣٨).

يمكن فهم هذين الموقفين المتعارضين في ضوء الهدف الصهيوني. فقادة الصهيونية الدولية رأوا في الحلفاء الجانب الأقوى، الذي يمكنهم الاستعانة به في إنشاء الدولة الصهيونية. لذا أعلنت الصهيونية الدولية عداءها للنازية، بعد تعاون دام سنوات، جني الصهاينة خلالها كثيرا، على حساب معاناة اليهود . أما صهاينة ألمانيا، فقد كان المجال مايزال مفتوحا، أمامهم، لتحقيق مكاسب كبيرة من التعاون مع النازية. فمع تصاعد العدوان النازي على اليهود، بداية من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨، تلاعبت الحركة الصهيونية الألمانية بمشاعر الخوف لدى اليهود الألمان؛ فأقنعتهم بالتبرع بمبالغ كبيرة من المال، من أجل توسيع معسكرات التدريب، ووسائل النقل، بسرعة، بحيث تتحول قطرات المهاجرين إلى فيضان. واستمرت اتفاقيات الهجرة الصهيونية/ النازية، على هذا النحو، سنتين، في أعقاب نشوب الحرب(٣٩). ومن جانبها ظلت السلطات النازية، حتى في أشد أوقات اضطهادها اليهود، حريصة على صلاتها بقادة الصهاينة الألمان، وتوليهم معاملة خاصة، تختلف عن معاملتها اليهود "المتشددين"، الذين لم تتوان عن ملاحقتهم(٤٠).

بيد أن عملية التهجير قد أُعيقت في سنة ١٩٤١، بعدما هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفييتي، وبرر النازيون ذلك، بأن الاتفاقيات لم تعد قادرة على

العمل، نظرا لحاجتهم إلى إعطاء الأولوية للوضع العسكرى على الجبهة الشرقية، لدى توزيع وسائل النقل؛ ونظرا للارتباك العام فى المواصلات فى أوروبا الوسطى والشرقية نتيجة الحرب. ولما وجد هتلر أن لم يعد ممكنا تخليص أوروبا من اليهود بواسطة الهجرة، اختار طريقة أخرى. "فى كانون الثانى/ يناير ١٩٣٨، كان قد أعطى الأوامر بوجوب توجيه الهجرة، مباشرة إلى فلسطين. وعندما أُغلق ذلك الباب، تبنى الطريقة البسيطة للخروج، التى طرحت نفسها عليه إذ ذاك: «الحل النهائى»، أى "معسكر الإبادة"(٤١).

وضعت هذه الحالة الجديدة الصهيونية الألمانية أمام اختيار خطير بين طريقين: الطريق الأولى هى إعلان الحرب على النازية، والتخلى عن كل الاتفاقيات معها، ورفع راية الثورة اليهودية ضد النازية، فى جميع أنحاء أوروبا. والطريق الثانية كانت القبول بأن الوضع قد تغير، مؤقتا على الأقل، فى اتجاه غير مؤاتٍ لهم، ومحاولة إنقاذ ما يمكنهم إنقاذه من العلاقات مع النازية، عن طريق التوصل إلى ترتيبات جديدة مع السلطات النازية، ولكنها محدودة عن ذى قبل(٤٢).

كانت الطريق الثانية تعنى القبول بموت أعداد كبيرة من اليهود، فى سبيل إبقاء باب الاتصال مع ألمانيا النازية مفتوحا، ليمكن استخدامه، إذا عادت الحالة فتغيرت، وأصبحت الظروف مواتية أكثر، فى المستقبل، لاستئناف نشاطات الهجرة إلى فلسطين. أما الطريق الأولى، فكانت تعنى وضع إنقاذ اليهود كهدف أول للصهيونية الألمانية، وإعلان العداء للنازية، وإن كان ذلك على حساب أية فرصة مستقبلية، للتعاون مع

النازية فى تهجير اليهود إلى فلسطين، إذا مالت الكفة لصالح النازية وحلفائها، وأصبحت الظروف فى صالحهم(٤٣).

كان الأولى بالصهاينة الألمان، التزاما بمصلحة اليهود، وبالقيم الإنسانية الصحيحة، أن يسلكوا الطريق الأولى، ويرفعوا راية الكفاح ضد النازية، ولكنهم اختاروا الطريق الأخرى. فقد كانت مقاومة النازية تعنى التخلى، بصورة نهائية، عن أى احتمال لتأمين "هجرة قانونية" محدودة للطاقة البشرية الصهيونية من أوروبا، عن طريق التعاون مع النازيين، فى المستقبل، إذا ما تغيرت الحالة اللوجستية، فيما بعد، لتسمح بذلك. واختيار المقاومة كان يعنى، أيضا، أن الصهاينة سيلقون أنفسهم فى الصراع ضد الظلم و"اللاسامية" فى أوروبا، جنبا إلى جنب مع غير اليهود، ودعاة الاندماج، واليهود التقدميين. وهذا لن يعنى، بالنسبة إلى الصهاينة، ضمنا، التشكيك الخطير فى أعمق معتقداتهم، فحسب، ولكنه سيكون، أيضا، وربما حتى بصورة أخطر، اعترافا بهزيمة فلسفتهم كلها(٤٤).

وعموما، أبدى القادة الصهاينة، داخل وخارج البلاد الواقعة تحت السلطة النازية، سلوكا مبهما، تراوح بين عرقلة الكفاح ضد النازية، والسعى إلى التعاون مع الفاشيين والنازيين. كان هدف الصهاينة الأساسى إنشاء الدولة الصهيونية فى فلسطين، وإن كان ذلك على حساب أرواح اليهود وغيرهم من البشر الذين وقعوا فى براثن العنصرية المتوحشة. كان الصهاينة، قبل اشتعال الحرب، وبعد أن حمى وطيسها، لا يبالون بمقاومة النازية، ولا بذبح اليهود، بل كانوا مشغولين بهدفهم الرئيس: الدولة الصهيونية فى فلسطين. ففى كانون الأول/ ديسمبر

١٩٣٨، صرح "بن جوريون"، الذى أصبح فيما بعد أول رئيس وزراء للكيان الصهيونى، أمام جمع من الصهاينة العماليين: "لو عرفت أن بالإمكان الاختيار بين إنقاذ جميع أطفال اليهود فى ألمانيا، بتوطينهم فى انجلترا، ونقل نصف هؤلاء الأطفال فقط، إلى إرتس إسرائيل {أى فلسطين}، لفضلت الخيار الثانى، دون شك. إذ يجب أن نأخذ فى الاعتبار تاريخ شعب اسرائيل بأسره، وليس مصير هؤلاء الأطفال فحسب"(٤٥).

واشتعلت الحرب، وهبت الحركات المقاومة للفاشية، فى أرجاء أوروبا، ولكن الأمر كان مختلفا فى المعسكر الصهيونى، كانت الأعين والآذان الصهيونية مركزة على فلسطين، فلسطين فحسب. ها هو ممثل الحركة الصهيونية فى لندن، فى أثناء الحرب، يسطر مقالا بعنوان "أينبغى لليهود المشاركة فى الحركات المناهضة للفاشية؟"، ويجيب القائد الصهيونى، عن السؤال المطروح فى العنوان، بالنفى. فالهدف الوحيد الجدير بالقتال من أجله، فى نظره، ونظر القيادات الصهيونية، هو "بناء دولة اسرائيل"(٤٦).

**سادسا- الصهيونية وإبادة اليهود:**

يملأ الصهاينة الدنيا صراخا وعويلا على ضحايا النازية من اليهود، والسؤال الذى يطرح نفسه بقوة: أين كانت المنظمة الصهيونية فى أثناء حدوث جرائم النازية؟

رغم الإمكانات المادية، والسياسية، والإعلامية، العالمية للمنظمة الصهيونية، بما فيها القوات المسلحة غير الشرعية فى فلسطين، لم تسع المنظمة إلى كشف الجرائم النازية، علنا، أو إلى دعم المقاومة اليهودية للنازية. فذلك الجهاز الصهيونى الضخم، لم يُستغل لمساعدة مقاتلى

الأحياء اليهودية، المحاصرين من القوات النازية، أو للمساعدة في عمليات الإنقاذ. بل حرص الصهاينة على المحافظة على قوة عسكرية، لا يستهان بها، على الأراضى الفلسطينية، تستخدم بعد انتهاء الحرب العالمية، فى احتلال أكبر مساحة ممكنة من فلسطين. ولم يدر ببال الصهاينة الانتفاع بتلك القوة العسكرية فى محاولات إنقاذ اليهود، وتأمين المساعدة للمقاومة السرية(٤٧).

كانت للصهيونية، فى أثناء عمليات الإبادة، أولوياتها المختلفة. كان شراء الأراضى فى فلسطين، هو الأهم من إنقاذ اليهود فى أوروبا. "بل دعا بعضهم للتقليل من الكلام عن المجزرة، كى لا تقوم بإلهاء اليهود (الصهاينة) عن شراء الأراضى". "لقد كانت دعوة واضحة للانضمام إلى مؤامرة الصمت". ويمكن تلخيص السياسة الصهيونية، فى أثناء الإبادة، فى شعار واحد، هو: "شاة واحدة فى إيرتس يسرائيل (أى فلسطين) تساوى مجتمعا بكامله فى المهجر"(٤٨).

رغب الصهاينة فى إنقاذ اليهود من براثن النازية، ولكن اليهود "النافعين" للدولة الصهيونية، وحدهم. لذا اتفق قادة الوكالة اليهودية على وجوب انتقاء القلة، التى يمكن إنقاذها، وفقا لمتطلبات المشروع الاستيطانى فى فلسطين. وقد كشفت محاكمة "أدولف ايخمان" عن عمليات مبادلة النازيين يهودا صهاينة مع الحركة الصهيونية. كان هؤلاء اليهود من الأثرياء، والفنيين، والشبان الأكفاء، لتعزيز الجيش، وما إلى ذلك. وهؤلاء بادلهم الصهاينة بجموع اليهود "الأقل نفعا"، الذين تركوا فى يدى هتلر(٤٩).

شهد الصهاينة، أنفسهم، بمسؤوليتهم عن إبادة اليهود، فى الحقبة

النازية. ففى آذار/ مارس ١٩٦٤، فى لقاء تخليد ذكرى ضحايا الإبادة، الذى أقامته الدولة الصهيونية، اعترف جولدمان، رئيس المؤتمر اليهودى العالمى، آنذاك، بمسؤولية الزعماء الصهاينة، وتسببهم فى هلاك مئات الألوف، إن لم يكن الملايين، من اليهود، الذين كان ممكنا إنقاذهم(٥٠).

ولكن هل وقف الصهاينة، من الإبادة، موقف التخاذل والصمت فحسب؟

ليت الأمر كان كذلك، لكن المثير للاشمئزاز، وإن لم يكن مثيرا للدهشة، أن يصل الصهاينة إلى حد التواطؤ والمشاركة فى إبادة بنى ملتهم من اليهود. فنجد أكثر الجماعات تطرفا فى الحركة الصهيونية، وهى جماعة "شتيرن"، تقيم اتصالات بالاستخبارات السرية النازية، ويبلغ أعضاء الجماعة النازيين بأنه من الممكن وجود تطابق فى المصالح بين النظام فى أوروبا، وفقا للتصور الألمانى وتطلعات "الشعب اليهودى فى فلسطين"، والتى تعبر عنها جماعة شتيرن. كان ذلك فى سنة ١٩٤١، وهى السنة، نفسها، التى قبض فيها على (إسحق شامير)، فى بريطانيا، بتهمة (الإرهاب والتعاون مع العدو النازى)، وكان شامير، آنذاك، من أعضاء اللجنة الثلاثية القائدة لحركة شتيرن. وفى الثمانينات كشفت إحدى الصحف، الصادرة فى تل أبيب، النقاب عن رسالة أرسلها شامير إلى النازيين، فى أثناء زحف رومل نحو الحدود المصرية (١٩٤٢)، جاء فيها: "نحن نتطابق معكم فى المفاهيم، فلماذا لا نتعاون معا؟!"(٥١).

لم يتورع الصهاينة عن المشاركة الفعلية، فى إبادة اليهود، الذين ادعوا العمل على إنقاذهم. فحينما قرر الإنجليز إنقاذ بعض اليهود، المهددين فى ظل الحكم الهتلرى، وذلك بنقلهم إلى جزيرة مورشيوس، لم

تتورع قوات منظمة "الهاجاناه" الصهيونية، عن تفجير الباخرة التى تقل هؤلاء اليهود (وهى ناقلة البضائع الفرنسية "باتريا")، عند توقفها فى ميناء "حيفا"، يوم ٢٥/١٢/١٩٤٠، كان قادة "الهاجاناه"، بزعامة بن جوريون، راغبين فى إثارة السخط على الإنجليز، وإن أدى ذلك إلى مقتل ٢٥٢ يهوديا، يضاف إليهم أفراد طاقم الباخرة الإنجليز(٥٢). ثم استغل الصهاينة الحادث، فى تعبئة الرأى العام العالمى ضد الانجليز(٥٣)!

وفى شباط/ فبراير ١٩٤٢، شارك الصهاينة فى إغراق الباخرة "ستروما"، التى كانت تحمل ثمانمائة مهاجر يهودى، فى مضيق البوسفور. وكان شريك الصهاينة، فى تلك الجريمة، هم النازيين، أنفسهم(٥٤).

وعلى المستوى الفردى، ثبت تعاون شخصيات صهيونية بارزة مع النازيين فى إبادة اليهود، أمثال "الفريد نوسيج"، الذى كان من مؤسسى الحركة الصهيونية مع هرتزل. وضع نوسيج، نظرا لرغبته فى إفراغ أوروبا من يهودها، خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين)، وتهجير الباقين، أو إبادتهم. وقد نفذ أعضاء المقاومة اليهودية للنازية، فى بولندا، حكم الإعدام فى نوسيج، فى شباط/ فبراير ١٩٤٣، بُعيد اكتشافهم تعاونه مع النازى والجستابو*(٥٥).

وكانت الجريمة الكبرى من نصيب الصهيونى "كاستنر"، الذى كان رئيس لجنة الإغاثة فى بودابست، التابعة للوكالة اليهودية. فقد عقد كاستنر صفقة شيطانية مع النازيين، قام، بمقتضاها، بإقناع ٤٦ ألفا

---

* المخابرات الألمانية فى العهد النازى.

من يهود المجر، بقبول ترحيلهم إلى معسكر الإبادة، بالخداع والتدليس. وكان الثمن هو سماح السلطات النازية، سنة ١٩٤١، بإرسال ٣١٨ يهوديا، ثم ١٣٨٦ يهوديا آخرين، من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين ("يهود من أفضل المواد البيولوجية" على حد قول إيخمان)(٥٦).

كشف أمر كاستنر، وقدم للمحاكمة، في الدولة الصهيونية سنة ١٩٥٢، بعد هجرته إليها، واستقراره بها. وقد أثارت محاكمة كاستنر جدلا واسعا، في الدولة الصهيونية، وسط خشية من انكشاف تواطؤ قادة صهاينة آخرين، كانوا أعضاء في الحكومة الاسرائيلية، في أثناء نظر القضية، مع كاستنر في جريمته البشعة. ومن ثم، كان الحل الوحيد، لمنعه من الكلام، هو اختفاءه للأبد، فاغتيل على عتبات المحكمة(٥٧).

دأب الصهاينة على انتحال الأعذار عن تخاذلهم عن إغاثة اليهود من الجرائم النازية، وأشهر عذر انتحلوه هو التظاهر بجهل معرفة حقيقة ما يجري في المعتقلات النازية(٥٨). ولكنه عذر تكذبه الوقائع والحقائق التاريخية. يعلق الحاخام "شونفلد"، أحد المنتمين إلى جماعة "ناطوري كارتا" اليهودية، على الأمر بقوله: "إن لجنة الإنقاذ، التابعة للوكالة اليهودية، في بودابست، حملت خطأ، اسم (الإنقاذ). فقد كان من الحري تسميتها اللجنة الخاصة (بالتغطية والتجاهل والكتمان). إن أفكار مسؤوليها الصهاينة، وخاصة رئيسها (غرينباوم)، كانت غارقة في مخططات، وطرق استغلال الإبادة ونتائجها، لإنشاء الوطن القومي، ولتحقيق المتطلبات الضرورية لإقامة الدولة اليهودية (الصهيونية)"(٥٩).

ويبرر بعض الصهاينة موقفهم المتخاذل، الذي لم يصل إلى مستوى السير في مظاهرات، ومسيرات تضغط على حكومات الحلفاء لإنقاذ

اليهود، بأن الحركة الصهيونية لم ترد عرقلة المجهود الحربى للحلفاء، بالمظاهرات والضغوط عليهم![60] وهى حجة داحضة، وعذر أقبح من ذنب، فالصهيونية قد مارست ضغوطا، خاصة على انجلترا، التى ضاقت ذرعا بتلك الضغوط، التى هدفت إلى "الاكتفاء" بإنقاذ اليهود القادرين على إنشاء دولة قوية فى فلسطين، وليس كل اليهود[61].

**أخيرا- الصهيونية تستغل الجرائم النازية التى شاركت فيها:**

يبدو أن اضطهاد اليهود قد تحول إلى شكل مربح من أشكال التجارة الكبيرة! حدث ذلك منذ البداية. فخلال الحقبة النازية، استطاع كثير من النازيين أن يجمعوا ثروات كبيرة، عادة من ممتلكات ضحاياهم، أو من عمل الرق، الذين كانوا يقومون به. وأخذ الصهاينة، المنظمون للهجرة اليهودية عن طريق تعاونهم مع النازيين، حصتهم من الفوائد المادية على حساب اليهود الأفراد[62].

وبعد اندحار النازية، انفرد الصهاينة باللعبة كلها، وصار اضطهاد اليهود البقرة التى تحلبها الصهيونية، فتدر عليها مكاسب هائلة، مادية ومعنوية. وكانت البداية بفلسطين، التى روج الاستعمار الغربى، أنها تعويض "عادل" عن الجرائم النازية فى حق اليهود. ومايزال الصهاينة، حتى اللحظة، يبتزون المجتمعات الغربية، والعالم أجمع، باسم "الهولوكوست"، والمذابح النازية.

*** هوامش الفصل الرابع:**

(١) عبد الوهاب المسيرى، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، القاهرة، دار الشروق، ط ٢، ١٩٧٧، ص ١٣١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤- ١٣٥ .

(٣) عبد الوهاب المسيرى، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نموذج تفسيرى جديد، ج ٢، القاهرة، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٩، ص ٤٥٩ .

(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩-١٤٠ .

(٦) المصدر نفسه، ص ١٣٢- ١٣٣ .

(٧) عبد الوهاب المسيرى، الأيديولوجية الصهيونية، دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ط ٢، يونيو/ حزيران ١٩٨٨، ص ٢١٨ .

(٨) عبد الوهاب المسيرى، البروتوكولات واليهودية والصهيونية، القاهرة، دار الشروق، ط ١، يناير ٢٠٠٣، ص ١٥٥ .

(٩) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣ .

(١٠) المسيرى، البروتوكولات...، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥ .

(١١) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤ .

(١٢) المسيرى، البروتوكولات...، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣- ١٥٤ .

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٥١- ١٥٢ .

(١٤) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢ .

(١٥) روجيه جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية، القاهرة، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٨، ص ٩٠ .

(١٦) المسيرى، البروتوكولات...، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣ .

(١٧) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥ .

(١٨) المسيرى، الأيديولوجية...، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨ .

(١٩) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩ .

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٥٠ .

(٢١) جارودي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠ .

(٢٢) فارس غلوب، نجمة داوود والصليب المعقوف، الصهيونية على خطى النازية، نيقوسيا، شرق برس، ط ١، نيسان/ ابريل، ١٩٨٩، ص ١٣- ١٥ .

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٥- ١٦ .

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٦ .

(٢٥) ف. بولشاكوف، معاداة الشيوعية مهنة الصهيونية، موسكو، وكالة أنباء نوفوتسي، ١٩٧٢، ص ٢٨ .

(٢٦) غلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٨ .

(٢٧) جارودي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠- ٩١ .

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩١- ٩٢ .

(٢٩) غلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٨- ٢٠ .

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٤- ٢٥ .

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٥ .

(٣٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣٣) المسيري، الأيديولوجية...، مصدر سبق ذكره، ص -٢٢٢ ٢٢٣ .

(٣٤) جارودي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٤ .

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩٤- ٩٥ .

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩٥ .

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٠٠ .

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٨٥ .

(٣٩) غلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤ .

(٤٠) جارودي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥ .

(٤١) غلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤- ٣٥ .

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٣٥ .

(٤٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤٥) جارودى، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧- ٨٨ .

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٨٦ .

(٤٧) المنظمة البريطانية المناهضة للصهيونية، التعاون الصهيونى النازى: أخطر وثائق القرن العشرين، الترجمة العربية، بيروت، دار الكتاب الحديث، د. ت، ص٧٢- ٧٤ .

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٨١ .

(٤٩) جارودى، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦- ٩٧ .

(٥٠) المنظمة...، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥ .

(٥١) جارودى، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢- ١٠٥ .

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨ .

(٥٣) بولشاكوف، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧ .

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٣٨ .

(٥٥) المسيرى، الصهيونية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦- ١٦٧ .

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٧٢ .

(٥٧) جارودى، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١ .

(٥٨) المنظمة...، مصدر سبق ذكره، ص ٩١ .

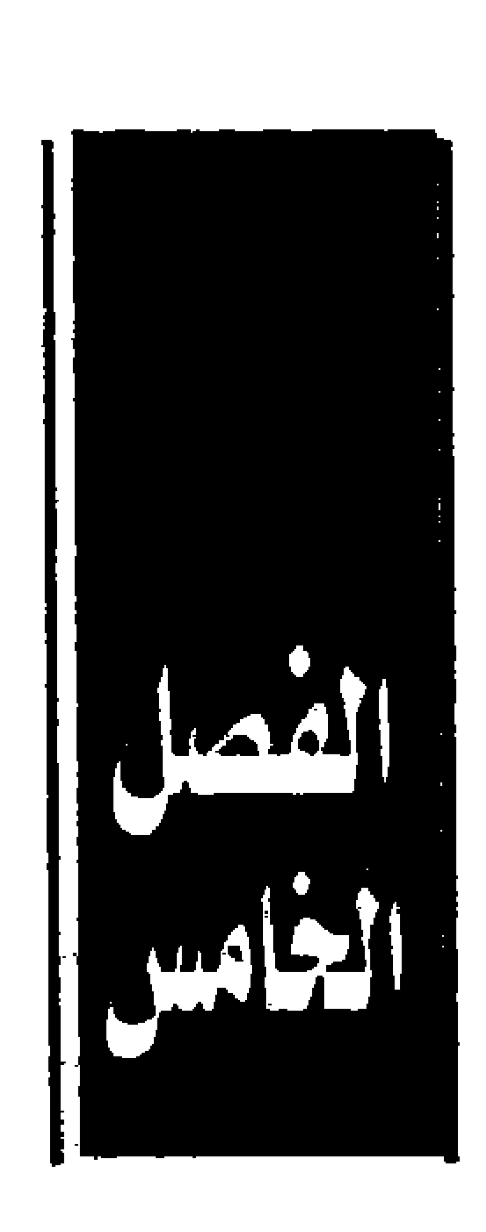
(٥٩) المصدر نفسه، ص ٨١ .

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٩١ .

(٦١) جارودى، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ .

(٦٢) غلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢- ٣٣ .

(٦٣) المنظمة...، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١ .



الفصل
الخامس

# ضجة حول الهولوكوست*

# 5

أحمد كمال صلاح

لقد اقتربنا من "حرق القربان بالكامل"! ما يقرب من مائة وخمسة وعشرين عاماً هى مدة حرق الجسد الفلسطينى المقدم من شعب صهيون إلى آلهته، ولكن هذا الجسد يأبى الفناء، هنا تكون إعادة قراءة التاريخ بمثابة إحياء للوعى، من جديد، بالرغم مما يكتنفها من مخاطر.

* كلمة يونانية تعنى «حرق القربان بالكامل».

إن دراسة تاريخ الصهيونية ودولة إسرائيل سلاح حاسم فى صراعنا مع قوة تريد أن تقدمنا إلى المذبح.

غنى عن القول إن البحث فى تاريخ إسرائيل، يشدنا إلى تاريخ أوربا، من بدايات القرن العشرين إلى منتصفه، وتحديداً ما بين الحربين العالميتين، الأولى والثانية، فما حدث ليهود أوربا فى هذه الحقبة قد يساعدنا فى فهم تاريخ إسرائيل "المقدس".

يتناول هذا الفصل جزءاً من تاريخ يهود أوربا، فى النصف الأول من القرن العشرين، هذا الجزء هو ما أطلق عليه "المحارق النازية لليهود"، أو ما اصطلح عليه بـ "الهولوكوست".

قد يعتبر موضوع "الهولوكوست"، في حد ذاته، من أحداث الحرب العالمية الثانية، والتي تعتبر، بشكل أو آخر، أوربية الطابع. لكن الكيان الصهيوني استطاع أن يسخِّر "الهولوكوست" لصالحه، في صراعه مع العرب. هنا أصبحت "الهولوكوست" قضية تهم العرب، وبما أننا نبحث في تاريخ إسرائيل، فالتاريخ لا يكون إلا نقدا، أي تقديم "الهولوكوست" برؤى متعددة، غير الرؤية الصهيونية المعتمدة.

ينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أجزاء، يتناول الأول منها الرواية المعتمدة، أو الرسمية لتاريخ "الهولوكوست"، من حيث طبيعة العداء لليهود، وطرق إبادتهم من قبل النازي، وأعداد الضحايا. أما في الجزء الثاني فنعرض لمدرستين من مدارس نقد تاريخ "الهولوكوست"، لتقديم

وعي مخالف، قبل أن نختم بجزء ثالث، نتحدث فيه عن صناعة "الهولوكوست" من قبل الصهيونية العالمية، وكيف تحول هذا «الهولوكوست» إلى أيديولوجيا.

## تاريخ الهولوكوست (الرؤية الشائعة)

جرت العادة على أن يؤرخ للهولوكوست، بداية من تسلم هتلر السلطة فى ألمانيا، فى ١٠ مايو/أيار ١٩٣٣، فى هذه الأثناء كانت ألمانيا ترزح تحت وطأة الكساد الكبير، منذ عام ١٩٢٩، وانتشرت البطالة، وعم الكساد، هنا كان الشعب الألمانى فى أمسّ الحاجة إلى قيادة قوية، متحدية، "تعيد المجد القومى الألماني"، خصوصا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. بدأ هتلر بتقوية ما يسمى "قوات العاصفة"، والتى ما إن ظهرت، فى صيف ١٩٢١، حتى أصبحت الذراع العسكرى للحزب النازى. فى بداية ١٩٣٣ كان ثمة نصف مليون جندى قد انخرطوا فى "قوات العاصفة"، ومع نهاية عام ١٩٣٤ قفز العدد إلى ٤,٥ مليون جندى، فى هذا الجيش الذى تفوق، عدديا، على الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى، وأصبحت "قوات العاصفة" الجيش الحقيقى للرايخ الثالث. وبدأ النظام النازى حملته على اليهود، عقب تعيين هتلر مستشاراً.

كانت خطب هتلر الحماسية، تصب جام غضبها على اليهود، باعتبارهم "سبب أزمة الأمة الألمانية". فى هذه الأجواء بدأ اليهود الألمان يفقدون اندماجهم فى المجتمع الألمانى، وأخذت تتكون جمعيات باسم «اليهود الألمان».

استمرت الحكومة الألمانية تلاحق اليهود، وفى سنة ١٩٣٥ طلبت السلطات الألمانية تغيير اسم هذه الجمعيات إلى "جمعيات اليهود فى ألمانيا"، هنا بدأت تتضح نية النازى فى عزل اليهود، عمليا، داخل المجتمع الألمانى. وفى إبريل/نيسان ١٩٣٥ استبعد أطفال اليهود من النظام التعليمى، ثم صدرت "قوانين نورمبرج"، التى نزعت من اليهود حقهم فى أن يكونوا مواطنين فى الرايخ(١).

فى عام ١٩٣٨ مُنع اليهود من العمل فى الوظائف الوسيطة، كأن يكونوا وكلاء، أو بائعين، أو مديرى عقارات(٢).

بدأت تتضح الصورة، أكثر فأكثر، فالنظام النازى عازم على إبادة اليهود، تماماً، تمهيداً لما يسمى "الحل النهائى" للمسألة اليهودية، الذى أخذ هتلر يطرحه فى خطبه، بقصد التخلص من يهود أوربا.

ازداد هتلر حنقاً على اليهود فى داخل ألمانيا، خصوصاً بعد حملات المقاطعة من يهود وصهاينة أمريكا، والتى أضرت بالاقتصاد الألمانى(٣). وبعد احتلال بولندا (سبتمبر/أيلول ١٩٣٩)، بدأ الإعداد لتهجير اليهود إلى هناك.

فى عام ١٩٤١ بدأت عمليات الاعتقال، والإبعاد الجماعية الواسعة بحق اليهود الألمان. وهكذا تم إرسال مئات الآلاف من اليهود إلى معسكرات العمل. وكانت بولونيا محطة تجميع وعبور وسيطة. وقد استندت هذه السياسة للاعتبارات والأسباب الآتية(٤):

١- بما أن جميع الرجال قادرون على حمل السلاح، فليكونوا فى جبهات القتال، بالإضافة للحاجة الماسّة إلى الأيدى العاملة.

٢- اليهود انحازوا، بالإجماع، إلى جانب الحلفاء، ما جعلهم يشكلون خطراً على الألمان.

٣- الحرب قدمت للنازيين فرصة مناسبة وملائمة لمباشرة تنفيذ "الحل النهائى".

**معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة):**

أقيمت معسكرات الاعتقال فى ألمانيا، عام ١٩٣٣، بعد استيلاء النازيين على الحكم، فكان البوليس السرى الألمانى "الجستابو" يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية، وأصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع. ووقعت أول حادثة ضد اليهود، فى نوفمبر/تشرين الثانى ١٩٣٨، عندما وضع عشرون ألف يهودى فى هذه المعسكرات[٥]. وقد شيد أول معسكر اعتقال جماعى فى «داخوا»[٦]، وهو من أشهر المعسكرات، بعد معسكر «أوشفيتز»، بالإضافة إلى معسكر «سوبيبور»، و«تربلينكا»، و«بلزك»، و«كلمنو»[٧]. وهذه المعسكرات كلها فى بولندا.

كانت أسوأ الفترات وأصعبها فى هذه المعسكرات، فى صيف وخريف عام ١٩٤٢، فخلال تلك الأشهر كان وباء التيفود فى أوشفيتز يقتل أكثر من ٣٠٠ شخص، يومياً، وفى بعض الفترات يموت فى معسكر أوشفيتز-بيركناو، وهو امتداد لمعسكر أوشفيتز، ما يفوق عدد الموتى فى المعسكرات الأخرى كافة. إن معسكر بيركناو، الذى مات فيه حوالى ٨٠ ألفا إلى ١٠٠ ألف معتقل، أغلبهم من المرضى الميئوس منهم، يعتبر من أشهر معسكرات الإبادة المتعمدة لليهود[٨].

لم يكتفِ النازى بقتل اليهود، وإبادتهم بدنياً، ولكنه أراد أن يقضى عليهم، اجتماعيا، ونفسياً، أيضا، وذلك بوضعهم فى جيتوهات، وهى ليست جيتوهات اليهود المعتادة، وأشهر هذه الجيتوهات "جيتو وارسو".

**جيتو وارسو**

أسس النازيون جيتوهات كانت تأخذ شكل مناطق قومية، وتتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة فى إحدى المدن من غير اليهود، ثم ينقل إليها عشرات الآلاف من اليهود.

من أشهر هذه المناطق "جيتو وارسو"، و"جيتو لودز"، و"جيتو ريجا" فى بولندا، ومستوطنة إينشتات فى بوهيميا بالمجر. وبلغ عدد القاطنين فى "جيتو وارسو"، عام ١٩٤١، حوالى نصف مليون يهودى، عاشوا فى رقعة صغيرة، حولها حائط، ارتفاعه ثمانى أقدام، وكان له اثنان وعشرون مدخلاً، يقف على كل منها ثلاثة جنود[٩].

سمح لجيتو وارسو أن يمتلك نظامه التعليمى، وأن يصدر جريدته اليومية، كما كانت له ميليشيا، ومحاكم خاصة ، أى أن الجيتو كان كدولة صغيرة منعزلة، ثقافياً، واقتصادياً، عما حولها.

وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو، من خلال فرض وضع اقتصادى غير متكافئ، بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين. فقيمة السلع التى كان ينتجها الجيتو والخدمات التى يقدمها كانت، دائما، دون حد الكفاف، الأمر الذى يعنى سوء التغذية داخل الجيتو، وتناقص عدد سكانه[١٠].

لم يكتفِ النازى بالطرق "الطبيعية" لإبادة اليهود، من جوع ، ومرض،

وحرب، وسخرة، فأضاف النازى توحشه فى إبادتهم باستخدام غرف غاز، وهى ما كان يستخدم لتنفيذ أحكام الإعدام فى أمريكا، هذه الغرف تستخدم "غاز زيكلون ب"، وهو "أسيد سينادريك المبلور"، الذى اخترع كمبيد حشرى.

**غرف الغاز**

سنذكر تصريحات شاهدى عيان رئيسيين وأساسيين، يدعيان أنهما شاهدا بأعينهما عمليات تعريض اليهود للغاز، فى أوشفيتز. اعترف رودلف هوس قائد المعتقل، من مايو/أيار ١٩٤٠، إلى نوفمبر/تشرين الثانى ١٩٤٣، بتعريض ٢,٥ مليون شخص فى أوشفيتز للغازات. وقد صرح هوس فى اعترافه بما يلى: "عندما شُيِّد مبنى الإبادة والقتل فى أوشفيتز، استخدمنا مادة "زيكلون ب"، وهى "أسيد سينادريك المبلور"، ويحتاج الأمر من ١٣ إلى ١٥ دقيقة، لقتل الناس المحتجزين فى غرفة الغاز، هناك تحسين أُجرى فى أوشفيتز، بالمقارنة بما هو موجود فى تربلينكا، وهو أننا شيدنا غرف غاز، يمكن أن تستوعب ألف شخص"(١١).

أما الشاهد الثانى فهو رودلف فيربا، الهارب من أُوشفيتز، وقد أخذ فى سرد تفاصيل الإعدام، فى وجود هيملر القائد الألمانى(١٢).

لا يمكن رد جرائم النازية فى حق اليهود إلى هتلر وحده، ففى كتاب "جلادو هتلر"، لمؤلفه دانيال جولد هاجن، حاول إثبات أن العداء لليهود متجذر فى المجتمع الألمانى، قبل وصول هتلر إلى السلطة، الذى سرع من وتيرة العداء لليهود، وتجسيد عداء المجتمع الألمانى لهم(١٣).

لقد استغل الصهاينة لحظة تفجُّر السخط الشعبى العالمى ضد النازية،

فعملت آلتهم الدعائية بكل جهدها، لتثبيت وقائع وأرقام معينة فى ذاكرة العالم، حيث عمدت الصهيونية إلى المبالغة فى أرقام الضحايا اليهود، دون غيرهم، على أيدى النازيين حتى إن الكتابات عن معاناة اليهود فى الحرب العالمية الثانية لا تحصى، حتى استأثر اليهود بكل العذاب والشفقة، وغدا "الهولوكوست" عقيدة لا تمس، ولا تنتقد. لكن التاريخ لا يكون إلا نقدا، ومن هنا ظهرت روايات مختلفة عن تاريخ "الهولوكوست".

### تاريخ الهولوكوست (رؤية نقدية)

شأن كل الأحداث التاريخية، تحدث، دائما مراجعة لكل الانفعالات والأساطير والمواد الدعائية، الصادقة والمزيفة، على حد سواء. وعليه لم يسلم "الهولوكوست" من هذه المراجعة.

إن المؤسس الحقيقى لتيار مراجعة التاريخ هو الفرنسى بول راسينيه، وهو اشتراكى فرنسى، كان عضواً فى المقاومة الفرنسية للمحتل النازى، وسجيناً سابق فى معسكرات الاعتقال الجماعية النازية، فى بوشافيلد، ودورا ميتلبر. وبعد إطلاق سراحه، كتب راسينيه كتابه، المعنون "أكذوبة أوليس"، الذى قدم فيه نظرة نقدية لتفاصيل رواية السجناء السابقين فى معسكرات الاعتقال المذكورة. وأشار العنوان إلى التقي الكاذب أوليس، الذى أضاف إلى الآلام والعذابات المائة التى عاناها، فعلاً، ألفاً أخرى اختلقها(١٤).

إذا كان راسينيه فى "أكذوبة أوليس" أكد أن غرف الغاز يمكن أن تكون موجودة، فلا دخان بلا نار، كما يقول المثل. إلا أنه اقتنع، تدريجياً، من خلال أبحاثه الواسعة، بأنه لم تقع عمليات إبادة بالغاز، وإذا كانت

هناك، فعلاً، مثل هذه العمليات، فإنها حالات معزولة، بفعل مبادرة حفنة من "المجانين". وقد توفى راسينيه، عام ١٩٦٧[١٥].

بعد أحد عشر عاماً، وفى فرنسا، أيضاً، كان الأستاذ الجامعى المتخصص فى نقد النصوص، روبير فوريسون، من رواد تيار مراجعة التاريخ، الذين أثبتوا الاستحالة، الفيزيائية، والكيميائية، لغرف الغاز. أما أتباع هذا التيار فهم قلة، لكن صفوفهم أخذت تتعزز باطراد، فقد انضم إليهم، منذ عام ١٩٨٨، البريطانى دايفيد إرفينج، وهو من أفضل العارفين والمتخصصين بدراسة بهتلر، والرايخ الثالث[١٦].

ثمة مدرستان فى مراجعة أحداث "الهولوكوست"، فكما وجدنا فى الرواية الشائعة، فإن "الهولوكوست" موجه بكامله لليهود، لم يعان ويلاته إلا اليهود، وبذا تم تهويد "الهولوكوست". وكما قيل فقد استأثر اليهود بعذابات "الهولوكوست"، فاستحوذوا على كل التعاطف.

ركزت إحدى هاتين المدرستين، على غير اليهود ممن شملهم "الهولوكوست"، ولم تنكر هذه المدرسة أعداد اليهود المعترف بها فى "الهولوكوست"، كما لم تنكر غرف الغاز، ووسائل القتل الأخرى، وإن عملت على إعادة الاعتبار لغير اليهود، أيضاً، فى هذا الصدد.

أما المدرسة الأخرى، فهى تشكك، أصلاً، فى الأحداث الرئيسية، مثل عدد الستة ملايين يهودى، الذين أبيدوا على أيدى النازى، وأفران الغاز المستخدمة فى القتل، وأيضاً المحارق التى استخدمت فى حرق الضحايا أحياء. ولنبدأ بالمدرسة الأولى.

سوف نقوم بتلخيص مقالة أندرو ناجورسكى فى أسبوعية "نيوزويك"

الأمريكية، (١٦/١/١٩٩٥)، التى عبَرت، بوضوح، عن رؤية المدرسة الأولى. عنوان المقالة "ميراث العذاب، من يمتلك معنى أوشفيتز؟".

على الرغم من صمت مدن بولندا، فإن أوشفيتز لا ترقد فى سلام. أوشفيتز بذاتها، هى اختصار لجريمة القرن العشرين. إن عريضة الأساطير، وسوء الفهم حول أكبر مخيم للنازية، لطويلة حقاً. المحققون السوفيت، أعلنوا فى مايو/أيار ١٩٤٥ ، بأن: "٤ ملايين إنسان قد ماتوا فى أوشفيتز". ظل هذا الرقم معتمداً، حتى فقد الشيوعيون البولنديون نفوذهم، عام ١٩٨٩، من هذا الوقت وهذا الرقم تتم مراجعته، باستمرار، حتى انخفض إلى ١,٥ مليون، وهو ما يعتقد أنه دقيق، من قبل معظم المؤرخين، اليوم.

فى الغرب يعتقد، خطأً، أن هذا المخيم، أنشئ خصيصاً لليهود، لكن الحقيقة أعقد من ذلك.

أول فوج من السجناء فى أوشفيتز، ضم ٧٤٨ بولندياً (يونيو/حزيران ١٩٤١)، كانوا سياسيين، كاثوليك فى معظمهم، وحتى التاريخ المذكور لم يكن قد تم نفى اليهود، بعد.

كان القتل والتعذيب أحداثاً طبيعية، ومعدل الوفيات كان مرتفعاً. لقد مات ٧٥,٠٠٠ من ١٥٠,٠٠٠ سجين بولندى. بعد اجتياح ألمانيا الاتحاد السوفيتى (يونيو/حزيران ١٩٤١)، حيث تم ترحيل الأسرى، وتوسيع معسكر أوشفيتز إلى معسكر آخر فى بيركناو، على بعد ميلين من أوشفيتز. الأسرى الروس كانوا فى ظروف أسوأ من زملائهم البولنديين فى أوشفيتز. "لقد كانوا يأكلون أعضاء زملائهم الموتى". بموت الأسرى

السوفيت السريع، قرر كل من هيملر وأودلف هيس، القادة الألمان، استخدام أوشفيتز ليلعب دوراً هاماً فى "الحل النهائى" بالنسبة ليهود أوربا. وذلك بترحيل اليهود إلى أوشفيتز فى كل أنحاء أوروبا، حتى أصبحت للمعسكر سمعة دولية.

فى هذه الأثناء أصبحت بيركناو، وغرف الغاز تعمل على أشدها. معظم اليهود البولنديين ماتوا فى معسكرات أخرى، مثل تريبلنكا، وسوبيبور، وبيلزك. فيما تم ترحيل حوالى ٣٠٠,٠٠٠ يهودى بولندى، إلى أوشفيتز، أُتْبِعوا بـ ٤٣٨,٠٠٠ يهودى مجرى.

أخبار أوشفيتز البشعة تسربت، قبل انتهاء الحرب، بسبب حركات المقاومة داخل المعسكر.

استمرت مقاومة محاولات تهويد "الهولوكوست" الدائمة، حتى أنه منذ عام ١٩٩٠، اقتصرت اللجنة المسئولة عن متحف أوشفيتز على المسيحيين واليهود فحسب(١٧).

لننتقل إلى المدرسة الأخرى، حيث إن معظم ما نعرفه عن "الهولوكوست" مستمد من محاكمات نورمبرج* ، وشهادات الأحياء من معسكرات النازى. لقد استخدمت خطب هتلر والأوامر الشفوية كأدلة حاسمة للتدليل على ما حدث لليهود فى معسكرات النازى.

فكل ما قاله هتلر عن "الحل النهائى"، و"مشكلة اليهود"، وأوامره إلى قادته بترحيل اليهود إلى معسكرات النازى، لاستخدامهم عمالاً لآلة الحرب الألمانية، قدم كدليل حاسم على جرائم

* محاكمات مجرمى الحرب من دول المحور، بعد الحرب العالمية الثانية.

"الهولوكوست". وهنا يقفز السؤال التالى: هل كانت هناك خطة لاستئصال اليهود فيزيائياً؟[١٨]. لقد بدا واضحاً من وثائق الحزب النازى، أن القوميين الاشتراكيين (الحزب النازى) لم يكونوا يقصدون بالحل النهائى استئصالاً أو إبادة، فيزيائية، وتصفيتهم جسدياً، بل تجميعهم وإقامتهم، مؤقتاً، فى أوربا الشرقية، ريثما تتوفر الفرصة لإخراجهم من أوروبا[١٩].

مثلاً، فى مؤتمر فانسيه، الذى عقد فى ١٩٤٢/١/٢٠، هذا مارتن لوثر، وهو أحد المشاركين فى المؤتمر، عن وزارة الخارجية، يكتب، فى ١٩٤٢/٨/٢١، فى مذكراته: "إن مبدأ السياسة الألمانية تجاه اليهود قوامه تشجيع هجرة اليهود، بكافة الوسائل والطرق إن عدد اليهود الذين أخرجوا، ودفعوا نحو الشرق بهذه الطريقة، لا يكفى لتغطية أساس الاحتياجات للأيدى العاملة"[٢٠].

لكن ماذا عن سلاح الجريمة "غرف الغاز" التى لم يوجد لها أثر؟ أما ما اعتبر "غرف غاز"، فهو لم يستخدم من قبل.

بعد أن هدأ غبار الحرب العالمية الثانية وذبولها، ذهبت السكرة، وجاءت الفكرة. وها هى إحدى شهادات القانونيين الأمريكيين الذين أرسلوا إلى "داخاو"، بعد أن أصبح معسكراً أمريكيا:

"لقد عشت فى داخاو، طوال ١٧ شهراً، بعد الحرب، كقاض عسكرى للولايات المتحدة، وأستطيع أن أشهد أنه لم يكن هناك أية غرف للغاز، وما يعرض على الزوار يقدم بطريقة خاطئة على أنه غرف الغاز، مع أنه محرقة لجثث الموتى"[٢١].

لعل من أشهر التقارير المتعلقة بغرف الغاز هذه، تقرير لوشتير، وهو مهندس أمريكي يدعى فريد لوشتير، المسئول عن بناء غرف الغاز، التي تستخدم لتنفيذ حكم الإعدام في الولايات المتحدة، بعد أن ذهب لوشتير إلى دخاو، وأوشفيتس، لتفقد غرف الغاز، كتب تقريراً، بيَّن فيه الاستحالة الهندسية لإمكانية استخدام هذه الغرف لقتل آلاف اليهود فيها.

إن التعقيدات الفنية المرتبطة بغرف الغاز الحقيقية لم تكن موجودة في غرف الغاز المزعومة في معسكرات النازي. كما أن عملية الإعدام نفسها يلزمها الكثير من الإعداد، قبلها وبعدها، أيضاً، حيث يستحيل أن يتم شحن وإفراغ غرف الغاز من الضحايا، كما ذكر في مذكرات الشهود[٢٢].

لعل من أهم نتائج "الهولوكوست" الشائعة هو عدد ضحايا اليهود، حيث قُدر بستة ملايين يهودي، تمت إبادتهم من قبل السلطات النازية، ما بين سنتي ١٩٤٢ و١٩٤٥. حتى أصبح رقم ستة ملايين من مقدسات "الهولوكوست"، لكن من أين أتى هذا الرقم؟.

جاء في كتاب ديفيد إرفينج "نورمبرج المعركة الأخيرة"، في فصل "أصل الملايين الستة"، أن أحد الخبراء الذين استعانت به المحكمة، وهو الدكتور جاكوب روبنسون، قال إن عدد الضحايا (ستة ملايين). وعندما سأله القاضي جاكسون عن أصل هذا الرقم، قال إنه وصل إلي عن طريق الاستنتاج من الإحصائيات المعروفة عن تعداد اليهود، في عام ١٩٢٩، ومن نجا منهم الآن، والفرق بينهم إما قتل أو اختفى"[٢٣].

بناء على إحصائيات أخرى، سجلت الدائرة الدولية فى أرولسين بألمانيا الغربية (سابقا)، حالات الوفاة التى أُثبتت وتأكدت فى معسكرات الاعتقال، وها هى الحصيلة، التى نشرت فى نهاية عام ١٩٩٠، مثلاً:

* معسكر أوشفيتز ٥٧٣٥٣ حالة وفاة؛
* معسكر موتهاوزن ٧٨٨٥١ حالة وفاة؛
* معسكر داخاو ١٨٤٥٥ حالة وفاة.

يستنتج من هذا إمكانية أن يكون ما بين ٦٠٠ ألف إلى ٨٠٠ ألف من الأشخاص قد لاقوا حتفهم فى المعسكرات الجماعية، بين عامى ١٩٣٣ و١٩٤٥، وأن أقل من نصف هؤلاء الضحايا كانوا من اليهود[٢٤].

إلى هنا نكون قد قدمنا وجهة النظر المقابلة لتاريخ "الهولوكوست" الشائع، ولكن لا ينتهى "الهولوكوست" عند إدعاء ما بجريمة نازية، وتفنيدها، لقد أصبح "الهولوكوست" عقيدة، وثقافة، وصناعة. لكن من الذين يروجّون لها، ويستفيدون منها؟!

يحدثنا نورمان فينكلشتين، فى كتابه "صناعة الهولوكوست" عن صناعة ثقافة "الهولوكوست" فى أمريكا، وكيف بدأ الوعي بهذه الثقافة، ودور النخبة اليهودية فى استغلال "الهولوكوست"، وكيف تطور الوعي بالهولوكوست، بعد عام ١٩٦٧؟. وكيف تم ويتم استخدام "الهولوكوست" للتغطية على شتى الجرائم الأخرى؟

يرى فينكلشتين أن "الهولوكوست" هو تصوير أيديولوجى للهولوكوست النازية، أى الحدث الذى ارتكبه النازيون، بالفعل، فيما تسعى مبادئ

ومعتقدات "الهولوكوست" إلى تعزيز ودعم مصالح سياسية وطبقية مهمة(٢٥).

حتى عهد قريب، لم تكن المحرقة النازية تتردد كثيراً فى الحياة الأمريكية. وفى الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وأواخر ستينيات القرن العشرين، تناولت هذا الموضوع بعض الكتب والأقلام، فضلا عن مقرر دراسى واحد فى جامعات الولايات المتحدة، حول الموضوع، لم يكن الأمريكيون عامة، واليهود منهم خاصة، بمن فيهم المفكرون اليهود، يهتمون كثيراً بالمحرقة النازية، ولم تقم فى الولايات المتحدة أية نصب تذكارية، أو تخليد للمحرقة النازية، بل العكس هو الصحيح، إذ عارضت كبرى المنظمات اليهودية هذا التخليد. والسؤال لماذا؟

لقد كان السبب الحقيقى وراء الصمت العام إزاء الإبادة النازية هو السياسات الملتزمة لزعامة يهود أمريكا، والمناخ السياسى فى أمريكا، ما بعد الحرب. وفى الشئون الدولية كانت الصفوة اليهودية الأمريكية تلتزم، تماماً، بالسياسة الأمريكية الرسمية، وقد سهل هذا لتلك الصفوة تحقيق الأهداف التقليدية للذوبان فى المجتمع، والتسلل إلى السلطة.

لقد كان "الحل النهائى" موضوعاً محرماً عند الصفوة اليهودية الأمريكية، لسبب آخر هو خوفها من ربطها باليسار السياسى، فى الداخل والخارج، لذا رفضت غالبية المنظمات اليهودية التعاون مع الديموقراطيين الألمان، المعادين للنازية، وعارضت المظاهرات العامة ضد النازيين السابقين(٢٦).

بعد حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل ، تغير كل شيء، ووفقاً لكل المقاييس، أصبح "الهولوكوست" شيئاً ثابتاً في الحياة الأمريكية. حيث انبهرت الولايات المتحدة بقوة إسرائيل، فسارعت باعتبارها رصيدا إستراتيجياً للولايات المتحدة(٢٧). وبالتالى انزوت كل الاعتبارات السابقة، وتحول "الهولوكوست"، شيئاً فشيئاً، إلى عقيدة، بالمعنى الكامل للكلمة.

يتمحور "الهولوكوست" حول عقيدتين أساسيتين:

١- يمثل "الهولوكوست" واقعة تاريخية، فريدة، من نوعها.

٢- يعتبر "الهولوكوست" ذروة كراهية "الأغيار"- غير المنطقية الأبدية لليهود.

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، لم تعتبر المحرقة النازية حدثا يهوديا فريداً، أو حدثاً فريداً من الناحية التاريخية. وقد جاهدت المنظمات اليهودية الأمريكية من أجل إشاعة المحرقة على نطاق عالمى. مع ذلك بعد حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧، تمت إعادة صياغة "الحل النهائى" النازى.

يقول جاكوب نيوزنز : "لعل أهم إدعاء برز، بعد حرب ١٩٦٧ ، وأصبح رمزاً لليهودية الأمريكية هو أن (الهولوكوست) فريد من نوعه، ولا نظير له فى تاريخ البشرية"(٢٨).

لقد استطاعت الآلة الإعلامية الصهيونية العالمية أن تثبت عقيدة "الهولوكوست" فى الوعي الأوروبى والأمريكى. وغدت أية محاولة للاحتجاج، أو مراجعة "الهولوكوست" بمثابة الهجوم على الإنسانية، وتبنى قيم النازية والعنصرية. ومن ثم يصبح اليهودى ذاك الكائن

المضطهد، طيلة تاريخه الإنسانى. واليوم يجب أن تتحمل البشرية جمعاء مسؤولية هذا الاضطهاد، لكى تحظى بشرف الإنسانية الرحيمة.

لقد كان من الطبيعى بعد ذلك، أن يتماهى الصهاينة اليهود مع كل يهود العالم، وبالتالى تصبح إسرائيل المعبِّر الرسمى أو الشرعى عن كل يهود العالم، فأى خدش لإسرائيل هو جرح عظيم لكل يهود العالم، ومن ثم تتولى الدول المتحضرة والشعوب المتقدمة تضميد هذا الجرح، أو الخدش! هنا تصبح إسرائيل فى منأى عن كل انتقاد، فهى كالمسيح، تحملت كل خطايا البشر، ويصبح المناضل العربى الفلسطينى رمزاً للشيطان، الذى يريد أن ينال من هذا الجسد الطاهر المعذب، دائماً (إسرائيل). ولا يكون على إسرائيل أى حرج فى القضاء على هذا الشيطان، بتجويعه، وتعذيبه، وذبحه، بل حتى حرقه، بشتى الوسائل، بمباركة الشعوب المتقدمة، المتحدثة باسم الإنسانية المعذبة!

وبعد، فإذا كان الصهاينة يشهرون "الهولوكوست" فى وجه الرأى العام العالمى، مع كل تصعيد فى الإرهاب الصهيونى ضد العرب، فإن هذا "الهولوكوست"، مهما بلغ حجم ضحاياه من اليهود، ليس مبرراً لأعمال القتل والسطو على حقوق العرب، الذين لطالما تعاملوا فى تسامح مع اليهود، عبر التاريخ. أى أن الثأر من العرب فى غير محله هنا.

**هوامش الفصل الخامس :**

(١) د. عبد الوهاب المسيرى، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، القاهرة، دار الشروق، ص ٤١٢ .

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) بورغن جراف، المذبحة تحت المجهر، ترجمة جواد بشارة، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٥ ، ص ٢٧ .

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) د. عبد الوهاب المسيرى، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، ط ٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٧، ص ١٠٩ .

(٦) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ٣١ .

(٧) المسيرى، الصهيونية... مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩ .

(٨) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤ .

(٩) المسيرى، الصهيونية... مرجع سبق ذكره، ص ١٦١ .

(١٠) المرجع نفسه، ص ١٦٢ .

(١١) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥ .

(١٢) المرجع نفسه، ص ٥٦ .

(١٣) لمزيد من التفاصيل راجع : **Daniel Jonah Goldhagen, Hitler's Willing Executioners, New.**

(١٤) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ١٧ .

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٨ .

(١٦) المرجع نفسه، ص ١٩ .

(١٧) **Andrew Nagorski, "A Tortured Lagacy", News-week, January, 16, 1995.**

(١٨) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩ .

(١٩) المرجع نفسه، ص ٣٠ .

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٣١ .

(٢١) روجية جارودى، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، القاهرة، دار الغد العربى، سلسلة "كتاب الغد"، رقم ٥، ص ١١٩ .

(٢٢) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦ .

(٢٣) David Irving, Nuremberg The last Battle, pp 100.

(٢٤) جراف، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨ .

(٢٥) نورمان ج. فينكلشتين، صناعة الهولوكوست، وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة (٨٤٢)، ١٩٩٨، ص ٩ .

(٢٦) المرجع نفسه، ص ١٥ .

(٢٧) المرجع نفسه، ص ١٩ .

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٣٧ .


الفصل
السادس

# 6

# قراءة فى قانون لتعقب معاداة السامية[*]

عبد القادر ياسين

فى أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤ وجهت الإمبريالية الأمريكية صفعة جديدة إلى العالم، فى شكل تشريع مستهجن، يفوق الفرمانات السلطانية فى كاريكاتيريته وتعسفه.

فقد وافق الكونجرس الأمريكى، بشكل نهائى، فى٨/١٠/٢٠٠٤، على مشروع قانون كان قد تقدم به عضو الكونجرس، توم لانتوس، الصهيونى المعروف، وبعد يومين وافق مجلس الشيوخ الأمريكى على القانون نفسه، وفى ١٠/١٦ صادق الرئيس الأمريكى، جورج دبليو بوش على هذا القانون، الذى حمل اسم "قانون لتعقب معاداة السامية عالميا".

لاحظ القانون الاتساع المطرد للحركات المعادية للسامية فى شتى أنحاء العالم، بما فى ذلك أقوى الدول الديموقراطية. وقد "اتخذت الحركات المعادية للسامية، فى بعض الأحيان، أشكالاً لتشويه الصهيونية، والحركة القومية اليهودية، والتحريض ضد إسرائيل". ما دعا الكونجرس إلى حث الإدارة الأمريكية على الاستمرار "فى دعم الجهود اللازمة فى

أنحاء العالم"، وأوكل إلى الخارجية الأمريكية "أن توثق وتتابع، من كثب، القوانين والحركات المعادية للسامية فى أنحاء العالم". وذلك عبر مكتب "المراقبة ومكافحة الحركات المعادية للسامية"، وتقديم تقرير دورى عن هذه الحركات والأعمال إلى كل من لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى، ولجنة العلاقات الدولية بالكونجرس، على أن يتضمن كل تقرير رصد شتى أعمال العداء للسامية، والجهد المبذول من الحكومات، فى مواجهة هذه الحركات والأعمال، ولتقوية مبادئ عدم التحيز والتسامح. وحتى تكتمل آليات عمل القانون، رأى البرلمان الأمريكى، بمجلسيه، أن يتم تعيين مبعوث أمريكى عالى المستوى، لمراقبة تنفيذ القانون المومأ إليه.

هكذا كان المجلسان التشريعيان الأمريكيان متسقين مع الرئيس الأمريكي، جورج دبليو بوش، الذى قطع، دون أن يرف له جفن، بأن "الدفاع عن الديموقراطية، يعنى مهاجمة معاداة السامية، وهزيمة الأشرار الذين يعادون اليهود"![1]

## السياق

بيد أن هذا القانون لم ينبت، شيطانياً، من الأرض، ولم يصدر إرضاء للصوت اليهودى فى الولايات المتحدة، أو تعبيراً عن خضوع الولايات المتحدة للصهيونية وكيانها. بل عكس أحد أهم ثوابت الإستراتيجية الأمريكية وهو التحيز للصهيونية وكيانها، بما يضمن أمن الأخير، وتفوقه العسكرى على الدول العربية مجتمعة، وليس هذا كله إلا أحد تجليات ارتقاء العلاقة الأمريكية-الإسرائيلية من التحالف الإستراتيجى إلى الاندماج الإستراتيجي. فإسرائيل لم تعد مجرد مخلب قط للإمبريالية الأمريكية، أو شريكاً صغيراً لها، بل غدت الأولى إحدى الولايات الأمريكية، حتى فاق حجم ما تتلقاه من معونات مالية من الولايات المتحدة ما تتلقاه أية ولاية أمريكية من الاتحاد. ولا حاجة بنا إلى رصد ما تتلقاه إسرائيل من مظاهر الدعم السياسى والعسكرى من الإدارات الأمريكية المتعاقبة، الديموقراطية والجمهورية منها، على حد سواء.

لقد كان طبيعياً أن يؤدى سقوط "المعسكر الاشتراكى" (١٩٨٩)، وانفراط عقد الاتحاد السوفيتى (١٩٩١) إلى انفراد الإمبريالية الأمريكية بشؤون العالم، إلى حد بعيد، بعد اختفاء رادعها النووى، أو "الماء المالح" الذى لطالما عوّم حركات التحرر الوطنى فى العالم (الاتحاد السوفيتى)، حسب تعبير الشاعر التقدمى الفلسطينى الشهير، توفيق زيّاد.

بعد الاندماج الاستراتيجي الأمريكي-الإسرائيلي، ثمة غياب للتضامن العربي، الذي كان متحققا في حده الأدنى، حتى قوَّضته حرب الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١)، ومعه افتقدنا الموقف العربي القوي والموحد، وهو تعبير عن تحرك الإمبريالية الأمريكية السريع، من أجل تكريس احتكارها موقع رأس النظام العالمي الجديد، بعد انهيار النظام العالمي، الذي ترتب على الحرب العالمية الثانية- (١٩٣٩-١٩٤٥)، وحتى تعيق تلك الإمبريالية مزاحميها من الدول الكبرى (فرنسا وألمانيا والصين) عن التطور ومنافسة الإمبريالية الأمريكية على الموقع الأول في هذا الميدان. ولعل هذا يفسر العدوان الأمريكي السافر على أفغانستان (٢٠٠١)، والعراق (٢٠٠٣)، بهدف استكمال الاحتكار الأمريكي لنفط العالم، والتحكم بالتالي باقتصاديات الدول المنافسة إياها.

دون أن ينفي هذا أن العدوان الأمريكي على العراق استهدف أيضا تخليص إسرائيل من عدو عسكري قوي، وتوفير مزيد من الضمانات لأمن إسرائيل، ولتفوقها على كل العرب، اقتصاديا وعسكرياً. ولقد أسهم هذا كله في وصول عتاة اليمينيين والصهاينة المسيحيين إلى سدة السلطة في واشنطن، فاكتملت الدائرة[٢].

**في الشكل**

لقد ارتبط مفهوم "السامية" بعلم الأجناس، والساميين هم أبناء سام بن نوح، الذين خرجوا من الجزيرة العربية، ومنهم اليهود الأوائل، الذين اتجهوا إلى العراق، فمصر، قبل أن يحطوا رحالهم في أسبانيا، ثم يعودوا أدراجهم إلى شمال أفريقيا، حيث كانت لهم إسهاماتهم المجدية في شتى الخلافات الإسلامية. بيد أن غالبية اليهود اليوم (ما يفوق ٩٥

فى المائة منهم)، ينحدرون من الخزر، بين بحريْ قزوين والأسود، وهم من الآريين، ولا يمتون بصلة إلى سام، وهم الإشكناز، الذين وقفوا وراء الصهيونية. حتى الأقلية السيفاردية، فإنها لم تحافظ على نقائها العرقى، بعد أن امتزجت بغيرها من الأعراق. ناهيك عن أن معيار العرق انحسر فى العالم اليوم، وتوارى. لذا من العبث معاتبة الأمريكيين بالقول "إن العرب هم الساميون الأقحاح"، فالأمريكيون لا يجهلون هذا الأمر ولكنه التحيُّز للصهيونية، ظالمة أو ظالمة.

نأتى إلى مصطلح "معاداة السامية"، الذى لا يعدو كونه سلاحاً، استقوت به الحركة الصهيونية، فى مواجهة الدولة، والكنيسة، والمجتمعات فى أوروبا، منذ زمن. لقد بات هذا السلاح يستخدم كنوع من الردع الاستباقى ضد كل مصادر النقد المحتملة لسياسة إسرائيل، أو ممارسات قوات الاحتلال الإسرائيلى الشرسة، إلى درجة توجيه الاتهام بمعاداة السامية إلى الشعوب الأوروبية(٣).

لعل العرب والمسلمين خارج نطاق الاتهام بمعاداة السامية، فالتاريخ يعلم أن اليهود عاشوا قروناً بين ظهرانينا، معززين مكرمين، ولم نقاومهم، إلا حين اغتصبوا الأرض، وتطاولوا على حقوقنا. وفى التاريخ الحديث فتح الوطن العربى ذراعيه لاستقبال اليهود، فى الوقت الذى رفضت فيه الدول الأوروبية استقبالهم، قبل أن يعمد هتلر إلى إحراقهم، بل تمسكت الدول الأوروبية بهذا الموقف، حتى بعد إحراق اليهود من قبل هتلر، فكان تهجيرهم إلى فلسطين، على النحو المعروف، ليثأروا من جلاديهم، باضطهاد العرب الفلسطينيين، وتقتيلهم!

نحن نؤمن باليهودية رسالة سماوية، ونحترم إنسانية اليهود، من

منطلق أخلاقى ودينى، فى آن. لكننا ضد الصهيونية، كحركة استعمارية عنصرية توسعية، اغتصبت ترابنا الوطنى، وتطلعت إلى مد دولتها "من النيل إلى الفرات"، وقد وصلت إلى الأخير، باحتلال القوات الأمريكية للعراق (ربيع ٢٠٠٣)، وبدأ العد التنازلى للوصول إلى النيل (حسب أمنيتهم).

إن المعاديين للسامية هم اولئك الذين أبعدوا اليهود عن أوطانهم فى أوروبا، بذريعة دينية (إقامة صهيون)، أو بادعاء إنقاذهم من معسكرات الإبادة. وفى الحقيقة للتخلص من اليهود.

### دلالات القانون

أما الاتهام الأمريكى الموجه بمعاداة الساميه فيتسع لكل المقاسات (All Size)، بعد أن تعسفت الإمبريالية الأمريكية وظللت بمصطلح "السامية" كلاً من اليهود، والصهيونية، وإسرائيل. بحيث تشمل هذه التهمة أى تفكير، أو رأى، مكتوب أو منطوق، أو نشاط، بما يسلح تلك الإمبريالية بذريعة جديدة للتدخل فى شؤون الأفراد والدول، بل شن العدوانات السافرة، المفتقرة للمبررات والأسباب الحقيقية. لقد افتقد هذا القانون توازنه، حين لم يشمل كل ضحايا معاداة السامية، بل اقتصر على اليهود، والأنكى أنه ضم إليهم الصهيونية وكيانها، فى تعسف ووقاحة.

لذا فالقانون الأمريكى المومأ إليه غدا سيفا مسلطا لابتزاز الدول، وتأثيم المقاومة، واتهامها، ظلماً وعدواناً، بالإرهاب و"معاداة السامية". وفى هذا الصدد يؤكد البروفيسير برنار لويس اتهام العرب بمعاداة السامية، لأنهم صمتوا عن ضم تركيا للإسكندرونة، اللواء الذى انتزعته

تركيا من سوريا، بينما هاج العرب وماجوا، لمجرد أن الصهاينة اغتصبوا فلسطين، وأقاموا عليها دولتهم (إسرائيل)! وأى نقد يوجه لهذه الدولة، أو أى تنديد بالجرائم التى تقترفها ضد العرب يندرج، من الآن فصاعداً، تحت بند "معاداة السامية"، وقد يصل الأمر إلى حد شن حرب على الدولة التى تجرأت على ممارسة النقد، أو الطلب إليها تسليم مواطن لها تطاول على الجرائم الإسرائيلية، حتى تودعه الإمبريالية فى سجن أبو غريب، أو معسكر جوانتنامو! أى أن هذا القانون القهرى الأمريكى إنما سن ليتخذ ذريعة لمعاقبة العرب. لذا صيغ القانون بعبارات فضفاضة، تتيح لمستخدميه التوسع والتعسف فى تطبيقه. فلا تظن أية دولة عربية أو إسلامية، أو أى مواطن عربى أو مسلم، مهما علا شأنه، أنه فى منأى عن الهراوة الأمريكية.

إلى ذلك يصادر القانون حرية التعبير والاعتقاد، بل يعزز موقف الحكومات الراغبة فى هذه المصادرة، على عكس ما تدعيه الإدارة الأمريكية من رغبة فى إشاعة الإصلاح الديموقراطى فى دولنا[4]. وهى رغبة فضحتها الجرائم الأمريكية فى سجني "أبو غريب" "وجوانتنامو"، والقتل بالجملة والمفرق فى العراق الشقيق.

على أن القانون يشي بانتقال العدوى إلى دول أوروبية، حيث ثمة جهود حثيثة فى ألمانيا لسن تشريعات تعسفية، بذريعة "منع عودة معاداة السامية" بين الألمان وبين الجاليات العربية والإسلامية، المتزايد هناك، حجماً وحضوراً. كما وضعت "الجمعية الوطنية الفرنسية" (البرلمان) قانوناً لمواجهة "معاداة السامية"، يتكئ على "تقرير جان كريستوف روفران"، الذى يرصد حالات "معاداة السامية"، ويدعو لتجريم دعوتها،

خصوصاً عبر وسائل الإعلام والثقافة. فضلاً عن احتمال صدور قوانين مشابهة فى دول أوروبية أخرى. وليس هناك حاجة للتذكير بقانون فابيوس جيسو، فى فرنسا (١٩٩٠)، والذى نصت إحدى مواده على تجريم ما سمته التشكيك فيما انتهت إليه محكمة نورمبرج، من تحديد لعدد ضحايا النازية من اليهود، بستة ملايين*(٥).

هاهو الأمين العام لجامعة الدول العربية – وهو المسئول العربى الكبير الأوحد الذى نطق ضد القانون– يشير، محقاً، إلى أن القانون الأمريكى إياه ليس إلا جزءاً من ظاهرة أوسع، وبمثابة تقنين للتدخل العسكرى الأمريكى، وابتزاز للأمم المتحدة ذاتها، وتفكيك للقضية الفلسطينية، التى يربطها القانون بالعداء لإسرائيل(٦).

إلى ذلك، ليس هذا القانون إلا مجرد خطوة جديدة على طريق تكريس الهيمنة الأمريكية على العالم. فالقانون ذو امتداد عالمى، يناقض حتى أحكام الدستور الأمريكى (حق المواطنين فى المساواة، والتعبير عن الرأى، ونقد ما يصدر عن الدولة من قوانين). فضلاً عن أن إنفاذ هذا القانون لا يتضمن خطراً كبيراً على القانون الدولى فحسب، بل أيضاً

* جاء صدور القانون، بعد أن ناقش الباحث والمؤرخ الفرنسى هارى روك، فى منتصف ثمانينات القرن العشرين، أطروحة دكتوراه، فى جامعة نانت، شكك فيها بوثائق الضابط النازى جرنشتاين، واعترافاته، فتصدى له الصهاينة، ووصموه بمعاداة السامية. ما دفع وزير التعليم الفرنسى، آنذاك، إلى سحب الدرجة العلمية من روك، فى خطوة غير مسبوقة. كما عدلت فرنسا، فى ٢٠٠٠/١٢/٢٢، على تعديل نص المادة ٢٤ من قانون الصحافة الفرنسى، الصادر فى ١٨٨١/٧/٢٩، لتتضمن جريمة التحريض على التمييز العنصرى أو على الكراهية، أو على العنف ضد فرد أو طائفة من الناس، وحدد القانون الفرنسى عقوبة الحبس لمدة سنة، وغرامه قدرها خمسة و أربعين ألف يورو لكل من يقترف هذه الجريمة.

على سيادة الدول، وحرية التعبير والاعتقاد. إننا أمام قانون غير مسبوق في وقاحته، يمنح دولة ما حق معاقبة أي مواطن في العالم، فيما لا حق للدولة إلا بمحاسبة مواطنيها، تحديداً(٧).

ناهيك عن أن هذا القانون لا يكتفي برصد أحداث العنف ضد السامية فحسب، بل يدعو إلى محاربتها، أيضاً. خصوصاً بعد أن يستدعي القانون كلاً من الصهيونية وإسرائيل، ويضيفهما إلى اليهود، تحت مصطلح "السامية".

وحسب تعبير خبير قانوني مصري مرموق، فإن هذا القانون الأمريكي العجيب لا قيمة له، من الناحية الدولية، بل هو ضد اليهود أنفسهم، وقد يأتي بنتيجة عكسية، لأنه يحاول فرض محبة اليهود والصهيونية وكيانها على كل العالم، ما يفضي إلى زيادة كراهية هذه المسميات الثلاث(٨). وحسب محام مصري معروف فإن هذا القانون بمثابة إرهاب فكري(٩).

لقد أضيف القانون المعني إلى ترسانة القوانين القهرية الأمريكية الجديدة، بعد أن سبقه "قانون مراقبة الحريات الدينية" في دول العالم، و"القانون الوطني" (Patriot Act)، الذي سن بعد هجمات ١١ سبتمبر/أيلول المتفجرة، والذي انتهك بفظاظة، الحريات المدنية للمواطنين الأمريكيين عموماً، وللعرب وللمسلمين على وجه الخصوص، بمن في ذلك الذين يزورون الولايات المتحدة، أو يمرون عبر مطاراتها.

حسب كاتب سياسي مصري مرموق، ستتحول المضايقات الأمريكية إلى عقوبات قاسية ومباشرة على الأفراد، والجماعات، والدول، بفعل

القانون الأمريكى المعنى، اتكاءً على الخلط المتعمد والمضلل بين إسرائيل كدولة، واليهود كدين، وبين الصهيونية كعقيدة، وبين يهود العالم كبشر، فضلاً عن أن هذا القانون يبيح المعاقبة بأثر رجعى، الأمر غير المشروع، قانوناً[١٠].

كما أن من شأن هذا القانون-بكلمات باحث أكاديمى لبنانى متخصص- أن يكرس واقعاً جديداً فى العلاقات الدولية، يقوم على أساس تقسيم العالم إلى محورين: المحور المتهم باللاسامية (العالم الإسلامى، العالم الكاثوليكى (أمريكا اللاتينية)، العالم الأرثوذكسى (روسيا) والعالم البوذى (الصين)، والعالم العالمانى (الاتحاد الأوروبى). أما المحور الثانى فهو المحور المعادى للاسامية، ويتألف حصراً، من الولايات المتحدة وإسرائيل![١١].

إلى ذلك ستقوِّم الولايات المتحدة علاقتها مع دول العالم، على أساس مواقف هذه الدول من "معاداة السامية"، وفق هذا القانون الظالم، ما يقوِّض بقايا المصداقية الأمريكية، ويفضح العداء الأمريكى للديموقراطية، وزيف دعوتها للإصلاح الديموقراطى فى دول العالم.

ناهيك عن الرابطة القوية بين هذا القانون الإرهابى وبين الدعوة الغامضة لإصلاح الأقطار العربية، التى أعلنها الرئيس الأمريكى، جورج دبليو بوش.

**ما العمل؟**

انعقد مؤتمر برلين "حول معاداة السامية" فى أبريل/نيسان ٢٠٠٤، وفيه قال وزير الخارجية الأمريكى آنذاك، كولن باول إن انتقاد إسرائيل

ليس معادة للسامية، وبعد ثلاثة أشهر قالت الخارجية الأمريكية إن إنشاء مكتب يختص بمتابعة العداء للسامية يقلل من المصداقية ويعكس التحيز الأمريكى[١٢]. أما حكامنا، فهذا الزحام لا أحد. إذ لم يتقدم حاكم عربى واحد الصفوف، ليتصدى لهذه الوقاحة الأمريكية، بل اقتصر الأمر على هذا المحفل الأكاديمى أو هذه المنظمة الأهلية أو تلك. فيما لم يحرك حكام العرب ساكناً، وكأن الأمر لا يعنى دولهم فى كثير أو قليل.

لذا علينا أن نقف أمام مسئوليتنا، أفرادا وهيئات، متجاوزين ردود الفعل، والانفعال، أو الإدانة الخاملة، متخطين الاستجابات المتناثرة، إلى الاستجابات الجماعية المؤثرة، القوية، الفاعلة. فالقانون غير دستورى، وعليه يمكننا رفع دعوى قضائية أمام القضاء الأمريكى، بالتنسيق بين منظمات المجتمع المدنى فى الوطن العربى والولايات المتحدة الأمريكية، دون أن يغنى هذا عن التحركات العربية ، والعربية الأوروبية ، والعربية الأوروبية الأمريكية، فى سبيل التصدى للقانون. ما يقتضى تفعيل دور الجاليات العربية والإسلامية فى الغرب عموماً، وفى الولايات المتحدة على وجه الخصوص. مع تحرك مواز فى أوروبا، فى سبيل قطع الطريق على صدور قوانين موازية هناك. مع تحريك منظماتنا المحلية (النقابات/الأحزاب/منظمات المجتمع المدنى)، ومنظماتنا الإقليمية (جامعة الدول العربية/منظمة المؤتمر الإسلامى). دون أن نهمل ضرورة التحرك السريع فى سبيل تعميق الوعي الشعبى العربى والإسلامى، بأبعاد هذا القانون، ومخاطره، حتى تصبح مقاومته قضية الأمة كلها. دون إهمال المحافل الدولية، وفى مقدمتها الأمم المتحدة، مع تحصين حكومتنا ضد الرضوخ لضغوط أمريكية - إسرائيلية مرجحة من أجل

تعديل مناهج التعليم فى بلادنا، حتى تصبح على مقاس أعداء الأمة. ناهيك عن ضرورة توفير الحماية الكافية لمواطنى كل دولة عربية وإسلامية من شرور هذا القانون.

وبعد، فالقانون المومأ إليه ليس إلا مجرد عينة من تشريعات أمريكية فى عصر عسكرة العولمة. ذلك أن غياب الاتحاد السوفيتى أفضى ضمن ما أفضى إلى توحش الإمبريالية الأمريكية المطرد، ما جعلها تستبيح العالم كله، وتجعل منه ميداناً لألعابها النارية، وتنصِّب من نفسها شرطياً، وبلطجياً، فى آن، قبل أن تجمع فى شخصها المشرع، والقاضى، والمدعى، والسجان، والجلاد معاً، وتطفق تسن التشريعات الهمايونية، غير عابئة بالأمم المتحدة، بل تسطو تلك الإمبريالية على هذه المنظمة، ومهامها، وواجباتها، فى وضح النهار. لذا لم يكن غريباً أن تفتقد التشريعات الأمريكية العالمية العدل والنزاهة. ولقد أتى هذا القانون موضوع البحث بعد أن اهتزت صورة الحمل الإسرائيلى المطوَّق بالذئاب العربية الشرسة، حسب أبواق الدعاية الصهيونية، داخل إسرائيل وخارجها، وجاء الاهتزاز بمجرد بدء القوات الإسرائيلية عدوانها المسلح على لبنان، صيف ١٩٨٢. واشتد هذا الاهتزاز، أكثر فأكثر، مع انكشاف الدور الإسرائيلى فى مذبحة صبرا وشاتيلا، خريف العام نفسه. بل إن صورة الحمل الإسرائيلى انقلبت إلى ذئب مفترس، غداة اندلاع انتفاضة الحجارة الفلسطينية (١٩٨٧/١٢/٩)، بعد أن كشفت تلفزيونات العالم صور الجنود الإسرائيليين يكسِّرون عظام الأطفال الفلسطينيين، مع سبق الإصرار والترصد.[١٣] لذا هذا القانون الأمريكى بمثابة تدليل للجانى الإسرائيلى، ومكافأته، وملاحقة المجنى عليه، ومعاقبته. وليس

أمامنا إلا أن نواجه هذا القانون بالجهود الدؤوبة، عبر توحيد وحشد كل قوى الخير والحرية، داخل كل قطر على حده، وصولا إلى المجالات العربية، والإسلامية، والأجنبية، مع بلورة إستراتيجية مديدة وصحيحة، فى سبيل إحباط المخططات الأمريكية العدوانية كافة، وفى مقدمتها هذا القانون الظالم. مع هذا كله لا يزال السؤال الذى انطلق، مع صدور القانون المذكور عاليه، يحوم، ومؤداه: "كيف ستتعامل الإمبريالية الأمريكية مع الرب، الذى نزَّل الإنجيل، متضمناً فى غير موضع-تنديدات بأفعال لليهود ضد المسيح وغيره؟!".

*** هوامش الفصل السادس:**

(١) أورده: صلاح الدين حافظ، الديموقراطية الكاذبة ومعاداة السامية!، الأهرام، (القاهرة)، ٢٠٠٤/١١/٣.

(٢) د. محمد هشام، فى ندوة نظمتها "اللجنة العربية للتحرير والعودة"، فى مقر نقابة الصحفيين بالقاهرة، ٢٠٠٥/٢/٣.

(٣) من حديث لرئيس المنظمة العربية لمناهضة التمييز، إبراهيم نافع، فى: الأهرام (القاهرة)، ٢٠٠٤/١٠/٣١.

(٤) حافظ، مصدر سبق ذكره.

(٥) المصدر نفسه.

- د. ثناء فؤاد عبد الله، موضة جديدة فى الغرب اسمها "قوانين ملاحقة أعداء السامية"، القاهرة (القاهرة)، ٢٠٠٤/١١/١٦.

(٦) عمرو موسى، فى ندوة نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، فى سبيل مناقشة القانون الأمريكى المعنى، فى ٢٠٠٤/١٠/٣٠، وعرضت لما دار فى الندوة، مديرة المركز، د. نادية مصطفى، أخبار الأدب (القاهرة)، ٢٠٠٤/١٢/١٢.

(٧) د. على الغتيت، فى الندوة نفسها.

(٨) د. فؤاد رياض، فى الندوة نفسها.

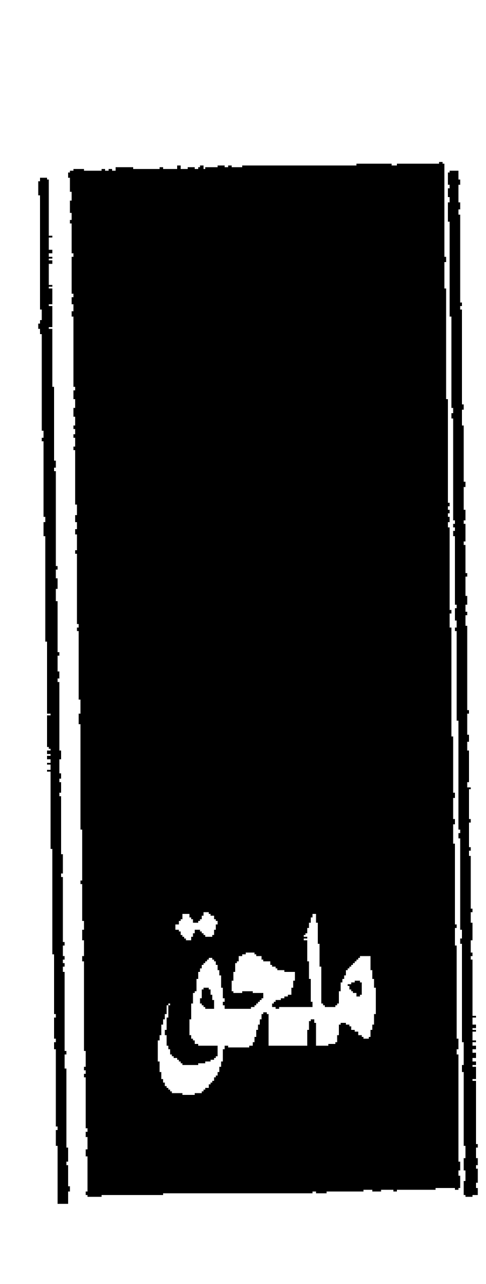
(٩) محسن جاد المحامى، فى الندوة نفسها.

(١٠) حافظ، مصدر سبق ذكره.

(١١) محمد السماك، العداء للسامية، الأهرام، (القاهرة)، ٢٠٠٤/١١/٣.

(١٢) عبد الله، مصدر سبق ذكره.

(١٣) آلن ميناج، نائب مدير عام "راديو فرنسا الدولية"، فى برنامج "بلا حدود"، فى فضائية "الجزيرة"، ٢٠٠٥/١/١٢.


ملحق

# قانون لتعقب معاداة السامية عالميا

٨ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٤

الكونجرس فى دور الانعقاد الـ (١٠٨)

الجلسة الثانية

S.2292

قانون بإعداد تقرير عن أفعال معاداة السامية فى العالم.

يصدر البرلمان ومجلس الشيوخ الأمريكى فى هذا الصدد القوانين التى يجمع عليها أعضاء الكونجرس.

**المادة ١:**

يمكن أن نطلق على هذا القانون " قانون لتعقب معاداة السامية عالميا لعام ٢٠٠٤ "

**المادة ٢:**

**حيثيات الإصدار**

لقد توصل الكونجرس إلى النتائج التالية:

١- إن الحركات المعادية للسامية قد ازدادت بشكل ملحوظ ومطرد، فى كل أنحاء العالم خلال السنوات العديدة الماضية، بما فى ذلك أقوى الدول ديمقراطية.

٢- تبين وجود العديد من الشـواهـد لحركات العنف المعادية للسـامية حـول العالم خلال الشـهور الثلاثة الأخيرة من عام ٢٠٠٣ والثلاثة الأولى من عام ٢٠٠٤، تتضمن الأحـداث التالية:

- صرح رئيس الوزراء السابق مهاتير محمد، فى بوتراجيا بماليزيا، فى ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٣، أمام ٥٧ من القادة الوطنيين المجتمعين فى مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامى، أن اليهود "يحكمون العالم بالوكالة"، ونادى "بالانتصار الأخير" لمسلمى العالم، الذين يبلغ عددهم ١,٣ بليون مسلم، والذى قال إنه لا يمكن هزيمتهم بحفنة ملايين من اليهود.

- تمت مجموعة تفجيرات متتالية لسيارات مفخخة خارج معبدين يهوديين مكتظين بالمصلين، وذلك فى مدينة استانبول بتركيا يوم ١٥

نوفمبر/ تشرين الثانى ٢٠٠٣، ونتج عن هذا الحادث مقتل أربعة وعشرين شخصاً، وإصابة أكثر من مائتين وخمسين شخصاً آخرين.

-فى ولاية تسمانيا باستراليا فى الخامس من يناير/ كانون الثانى ٢٠٠٤، استخدم مواد سامة لإشعال وحرق الشعارات المعادية للسامية إلى داخل حدائق مبنى البرلمان.

-فى سانت بيترزبرج بروسيا قام مخربون، فى الخامس عشر من فبراير/ شباط ٢٠٠٤، بانتهاك حرمة نحو خمسين من المقابر اليهودية، ورسم الصليب المعقوف على شواهد القبور، وحفر الشعارات المعادية للسامية عليها.

-وفى تورنتو بكندا قام مخربون، فى الفترة من ١٩ - ٢١ مارس/ آذار ٢٠٠٤، وكانت تصادف عطلة نهاية الأسبوع، بمهاجمة مدرسة، ومقبرة، وهياكل لليهود، وقاموا برسم الصليب المعقوف وكتابة الشعارات المعادية للسامية على جدرانهم وأيضا على المبانى السكنية المجاورة والتى كانت الغالبية منها ملكا لليهود فى هذه المنطقة.

- فى طولون بفرنسا، تم إشعال النار فى هيكل لليهود، ومركز لتجمعهم، وحدث ذلك فى الثالث والعشرين من مارس/ آذار ٢٠٠٤.

٣- لوحظ أن الأنماط الحديثة والقديمة المعادية للسامية فى ازدياد مستمر، خصوصا تلك الصادرة عن العالم العربى والإسلامى، المتمثلة فى إصدار الكتب من خلال جهات النشر الحكومية فى مصر ودول عربية أخرى.

٤- أذاع التلفزيون المصرى، فى نوفمبر/ تشرين الثانى ٢٠٠٢،

مسلسل " فارس بلا جواد"، وهـو معاد للسامية، وتقوم فكرته على أساس النظرية الخيالية للمؤامرة، المعروفة باسم "بروتوكولات حكماء صهيون". تلك البرتوكولات التى استخدمها فى القرن الماضى زعماء من أمثال أدولف هتلر، ليبرر بها ما قام به من عنف ضد اليهود.

٥- أيضا فى نوفمبر/ تشرين الثانى ٢٠٠٣ قام التلفزيون العربى بإذاعة مسلسل آخر معاد للسامية، بعنوان "الشتات"، ويصور فيه الشعب اليهودى على أنه يتآمر من أجل أن يسيطر اليهود على العالم.

٦- وقد دفعت هذه الموجة المتزايدة الحدة من العنف المعادى للسامية المنظمات الدولية، مثل منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا، لتقديم منظور جديد للقضية، وعرضه فى المؤتمر الذى عقدته المنظمة خصيصا فى فيينا، من أجل مناقشة قضية معاداة السامية، وكان هذا خلال يونيو/ حزيران ٢٠٠٣.

٧- كما عقدت منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا مؤتمرا آخر، فى الفترة من ٢٨-٢٩ أبريل/ نيسان ٢٠٠٤، فى برلين، لمناقشة مشكلة العداء للسامية، بحضور الوفد الأمريكى، برئاسة "إد كوش "، العمدة السابق لمدينة نيويورك.

٨- وقد بذلت الحكومة الأمريكية جهودا مكثفة لمناقشة قضية العداء للسامية، من خلال علاقات ثنائية وتعاون مع المنظمات الدولية مثل منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا، والاتحاد الأوروبى، والأمم المتحدة.

٩- وقد ساند الكونجرس الأمريكى، باستمرار، الجهود المبذولة لمناقشة العنف المعادى للسامية: ففى خلال دور الانعقاد الـ١٠٧، قام كل من مجلس الشيوخ والبرلمان بإصدار قرارات تعرب عن قلق كبير فيما

يتعلق بتصاعد العنف ضد السامية فى أوروبا، ودعا الكونجرس وزارة الخارجية الأمريكية إلى توثيق تلك الظاهرة بعناية.

١٠- اتخذت الحركات المعادية للسامية، فى بعض الأحيان، أشكالا لتشويه الصهيونية، والحركة القومية اليهودية، والتحريض ضد إسرائيل..

**المادة ٣:**

**تقدير الكونجرس**

ثبت فى يقين الكونجرس أنه :

١- يجب على الحكومة الأمريكية أن تستمر فى دعم الجهود اللازمة لتقويض حركات العداء للسامية فى أنحاء العالم، وذلك من خلال العلاقات الثنائية، والتواصل مع المنظمات الدولية مثل منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا، الاتحاد الأوروبى، والأمم المتحدة.

٢- يجب على وزارة الخارجية الأمريكية أن توثق، وتتابع عن كثب، القوانين والحركات المعادية للسامية فى أنحاء العالم.

**المادة ٤:**

**التقارير**

تتقدم وزارة الخارجية الأمريكية إلى لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ، وكذلك لجنة العلاقات الدولية فى البرلمان، فى موعد أقصاه ١٥ من نوفمبر ٢٠٠٤، بتقرير عن الأفعال المعادية للسامية فى أنحاء العالم يتضمن وصفاً للآتى:

١- أعمال العنف البدنى ضد، أو التحرش باليهود، وأعمال العنف أو

التخريب لمؤسسات المجتمع اليهودى، كالمدارس والمعابد والمقابر، التى حدثت فى كل بلد.

٢- رد فعل حكومات تلك الدول على تلك الأعمال.

٣- الإجراءات التى تتخذها الحكومات من إصدار وإنفاذ القوانين المتعلقة بحماية الحق فى ممارسة الحرية الدينية للشعب اليهودى.

٤- الجهود التى تبذلها تلك الحكومات لتشجيع تعليم عدم الانحياز والتسامح.

أمثلة لحملات الدعاية فى الإعلام الحكومى وغير حكومى، التى تحاول تبرير أو تشجيع الكراهية العنصرية، أو أعمال التحريض، أو ممارسة العنف ضد الشعب اليهودى.

**المادة ٥:**

**الترخيص بإنشاء مكتب لمراقبة ومحاربة المعاداة للسامية.**

قانون السلطات الأساسية لوزارة الخارجية لعام ١٩٥٦ يعدل بإضافة المادة الجديدة التالية بعد الفقرة ٥٨ (22U.S.C.2730) :

**المادة ٥٩ مراقبة ومكافحة معاداة للسامية**

**أ - مكتب لمراقبة ومكافحة الحركات المعادية للسامية**

**١- *تأسيس المكتب:***

ينشيء وزير الخارجية الأمريكى داخل وزارة الخارجية مكتبا لمراقبة ومكافحة الحركات المعادية للسامية (المشار إليه فى هذه الفقرة بالمكتب).

**٢- رئاسة المكتب:**

أ) مبعوث خاص لمراقبة ومكافحة الأعمال المعادية للسامية:

يرأس المكتب المبعوث الخاص (الذى سيتم تعيينه) لمراقبة ومكافحة الأعمال المعادية للسامية (المشار إليه فى هذه الفقرة "بالمبعوث الخاص").

ب) تعيين رئيس المكتب:

يقوم الوزير بتعيين المبعوث الخاص. ويكون من بين موظفى وإداريى الوزارة إذا تراءى له ذلك. وللمبعوث الخاص الحق فى الاحتفاظ بمنصبه السابق ومسؤولياته التى كانت له قبل تعيينه مبعوثا خاصا.

**ب- أهداف المكتب**

يتولى المكتب، بعد تأسيسه، المسؤوليات الأولية التالية:

١- مراقبة ومكافحة الأفعال المعادية للسامية وكذلك التحريض المعادى للسامية الذى يظهر فى الدول الأجنبية.

٢- التنسيق والمساعدة فى إعداد جزء من التقرير المنصوص عليه فى الفقرة ١١٦ (د)(٧) و ٥٠٢ ب (ب) من قانون المساعدة الخارجية لعام ١٩٦١ 22U.S.C.2151n(d)(7)and 2304(b)، والمتعلق بتقييم ووصف طبيعة ومدى الأفعال المعادية للسامية وأعمال التحريض المعادية للسامية، لتضمينها فى التقرير السنوى للدول عن ممارسات حقوق الإنسان فيها.

٣- التنسيق والمساعدة فى إعداد جزء من التقرير المنصوص عليه فى الفقرة 102(b)(1)(A)(iv) من قانون الحريات الدينية العالمى لعام ١٩٩٨ (22U.S.C.6412(b)(1)(A)(iv) ، والمتعلق بتقييم ووصف

طبيعة، ومدى الأفعال المعادية للسامية، وأعمال التحريض المعادية للسامية، لتضمينها فى التقرير السنوى عن الحريات الدينية حول العالم.

***جـ- الاستشارات***

يقوم المبعوث الخاص باستشارة المنظمات الداخلية والدولية غير الحكومية والمنظمات متعددة الأطراف والهيئات، على الوجه الذى يراه لازما لتحقيق الأهداف المطلوبة من هذه الفقرة.

**المادة ٦:**

تتضمن المعلومات الخاصة بالأعمال المعادية للسامية فى الدول الأجنبية فى التقارير السنوية لوزارة الخارجية :-

***أ- التضمين فى التقرير السنوى لممارسات حقوق الإنسان:***

يعدل قانون المساعدة الخارجية لعام ١٩٦١ (22U.S.C 2151 et seq) على الوجه الآتى:

أولا: فى الفقرة ١١٦ د(22U.S.C. 2151 n) (d).

١- إعادة تعديل الفقرات ٨ و٩ و١٠ لتصبح ٩، ١٠، و١١ على التوالى.

٢- إدخال فقرة جديدة بعد الفقرة (٧) وهى:

"٨-حيثما يمكن التطبيق، وصف لطبيعة ومدى الأعمال المعادية للسامية والتحريضات المضادة للسامية التى ظهرت فى العام السابق، حيث يتضمن الوصف:

* ممارسات العنف البدنى ضد، أو التحرش بالشعب اليهودى

وحركات العنف أو التخريب لمؤسسات المجتمع اليهودى، بما فى ذلك المدارس، والهياكل، والمقابر.

* حملات إعلامية للدعاية فى الإعلام الحكومى وغير الحكومى، الذى يبرر، أو يشجع الكراهية العنصرية، أو يحرض على حركات عنف ضد أفراد الشعب اليهودى.

* مواقف وردود فعل حكومات تلك الدول،إن وجدت، على هذا العنف وجهودهم للقضاء على تلك الحملات والتحريضات.

* موقف الحكومات من إصدار وإنفاذ القوانين المتعلقة بحماية الحق فى ممارسة الحريات الدينية للشعب اليهودى.

* جهود تلك الدول لتشجيع تعليم عدم الانحياز والتسامح.

ثانيا: بعد الجملة الرابعة من الفقرة (22 U.S.C. 2304 502B(b) بإدراج الآتى: " أينما يمكن التطبيق، وصف لطبيعة ومدى الأعمال المعادية للسامية والتحريضات المضادة للسامية التى تظهر، بما فى ذلك وصف لتلك الحركات فى الفقرة ١١٦ د(٨) ".

ب- التضمين فى التقرير السنوى لحرية ممارسة الدين:

تعدل الفقرة ١٠٢ (ب) (١) (أ) من القانون الدولى لحرية ممارسة الدين لعام ١٩٩٨ ((22 U.S.C 6412 (b) (1) (A)) على الوجه الآتى:

(١) فى البند رقم (ii)، بشطب "و" فى النهاية.

(٢) فى البند رقم (iii)، بشطب النقطة فى النهاية وإضافة "و".

(٣) إضافة البنود الجديدة التالية بعد البند رقم (iii).

(iv) "أينما يطبق، يتم تقييم ووصف طبيعة ومدى الحركات المعادية للسامية والتحريضات المضادة للسامية، التى ظهرت فى تلك الدول، خلال العام السابق، على أن يتضمن:

– حـركـات ممارسـة العنف البـدنى ضـد، أو التـحـرشـات بالشـعب اليـهـودى، وحـركات العنف أو التـخـريب لمؤسـسـات المجتمع اليـهـودى، وموقف حملات الدعاية الإعلامية الحكومية وغير الحكومية التى تحرض على تلك الأفعال.

– الإجراءات التى اتخذتها حكومات تلك الدولة لمجابهة ذلك العنف، وتلك الهـجـمات أو للقضـاء على الحـملات الإعـلامـيـة، أو التـحـريضـات، ولإصـدار وإنفاذ القوانين المتعلقة بحماية حقوق أفراد الشعب اليهودى فى ممارسة حرية الدين، ولتشجيع تعليم عدم الانحياز والتسامح.

***جـ – تاريخ نفاذ تلك الإضافات:***

التعديلات التى أدخلت على الفقرات الفرعية (أ) و(ب) ستطبق بداية من ميعاد تقديم التقرير الأول المتضمن للفقرات ١١٦د و٥٠٢ عن قانون المساعدات الخارجية لعام ١٩٦١ (22U.S.C. 2151n)، و٢٣٠٤ ب، والفقـرة ١٠٢ب، من القـانـون الـدولى لمـارسـة الحـريـة الدينـيـة لعام ١٩٩٨ (B 6312) (22U.S.C) الذى يتم تقـديمـه بعـد مـضـى ١٨٠ يوماً من تاريخ تفعيل هذا القانون.

**تم التصديق عليه من مجلس الشيوخ الأمريكى**

**فى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٤**

**ووقعه الرئيس بوش فى ١٦ أكتوبر ٢٠٠٤**

# ثالوث الشر

فى أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٤ صدر قانون أمريكى له العجب، لما تضمنه من جرأة علي الحق، والقانون الدولى، حمل اسم «قانون لتعقب معاداة السامية».

على أن هذا القانون لم يقابل بما يستحقه من ردود فعل عربية وإسلامية، خاصة من القوى السياسية والأنظمة الحاكمة، التى لاذت بالصمت تجاه هذا القانون غير المسبوق فى خطورته على الأمن والسلام العالميين.

فى سياق مواجهة القانون المذكور، يجئ هذا الكتاب، الذى أنجزه ستة من النشطاء، الذين يجمعون بين العمل فى البحث الأكاديمي والاشتغال فى السياسة، وتوزعوا، جغرافياً، بين مصر والفلسطين.

يتسم الخطاب الصهيونى والأمريكى الإمبريالى بأنه ينزع الظواهر من سياقها السياسى والإجتماعى والتاريخى، فهو يتحدث عن الإرهاب، و«الشرق الأوسط الكبير»، و«معاداة السامية»، دون أن يربط الظاهرة بأسبابها، أو سياقها، ثم يفرض عليها المعني الذي يريده وهذا الكتاب يفعل العكس، تماماً، فهو يضع هذا القانون الأمريكي فى سياق الاستراتيجية العامة للهيمنة.

ولا يكتفى الكتاب الذى بين أيدينا بوضع القانون فى سياقه الاستراتيجى العام، بل يحاول أن يعطى القارئ بانوراما تحليلية، فهى بانوراما فى اتساعها، وتحليلية فى أن كل واحد من المساهمين فى الكتاب قام بتحليل إحدى جوانب هذه البانوراما، بشكل مفصّل، ونقدى، فى ذات الوقت، يبين مدى إدركهم للمصلحات والمفاهيم الكامنة وراءها.

